التنوخي وجهوده
في البلاغة

دكتور / رجب محمد سالم رفاعي
استاذ البلاغة والنقد المساعد
جامعة الأزهر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، نحمده ونستعينه و نستغفره، كرم العلم ، ورفع قدر العلماء، وأشهد أن لا إله إلا الله خلق الإنسان وعلمه البيان. وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله إمام المرسلين، وخاتم النبيين أفصح العرب و أبلغهم، اللهم صل و سلم و بارك عليه و علي آله و صحبه أجمعين.

و بعد

فإن ممن أسهم في ميدان البحث البلاغي بفكره الثاقب و آرائه المستنيرة – وإن لم ينل من الشهرة في هذا الفن مثل أقرانه – الإمام زين الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمرو التنوخي أحد أعيان المائة السابعة للهجرة، حيث ألف كتابا في علوم البلاغة أسماه (الأقصى القريب في علم البيان) .

وهذا الكتاب علي و جازته فإنه يعد مرجعا من مراجع الدراسات البلاغية، إذ ضمنه التنوخي الكثير من المباحث البلاغية القيمة، منها ما استقاه من فكر السابقين عليه أمثال ابن سنان الخفاجي، و ابن الأثير و غيرهما، ومنها ما هو من فكره وقريحته وخاصة تحليلاته و تعليلاته لما أورده من شواهد شعرية ونثرية. فضلا عما جاء به من أبحاث منطقية و نحوية استهل بها كتابه، الأمر الذي يدل علي سعة اطلاعه و تعدد ثقافته.

ولما كان التنوخي وكتابه هذا لم ينالا حظهما من الشهرة أمثال غيره من البلاغيين و كتبهم أردت من خلال عرض ودراسة هذا الكتاب أن أكشف النقاب عن أهم جهود التنوخي البلاغية و مدى مساهمتها في إثراء البحث البلاغي، فإن في كتابه من معالم الأصالة وآثار الشخصية التي تميز صاحبها من غيره من الباحثين الشيء الكثير.

إضافة إلي ذلك فإني أردت بهذا البحث إظهار ناحية لها أهميتها من نواحي التفكير الفني البلاغي في عصر التنوخي والذي غلبت عليه سمة المدرسة السكاكية التي حفلت بالتقسيمات و التعريفات و وضع الحدود، فجاء فكر التنوخي فريدا يحمل ذوق عبد القاهر و فكر السكاكي .

يقول شوقي ضيف : (والكتاب – يقصد كتاب الأقصى القريب في علم البيان للتنوخي – ينحرف عن السكاكي و الزمخشري و عبد القاهر جميعا ، و يتضح ذلك في نفس عنوانه ، إذ أطلق علي مباحث البلاغة اسم البيان ، متابعا في ذلك ابن الأثير و من لفّ لفّه كابن الزّملكاني)(١)
وبهذا نري التنوخي يطلق علي مباحث علم المعاني والبيان والبديع جميعا اسم البيان دون تمييز بينها .
كما أردت بهذا البحث و صل ما أورده التنوخي في كتابه من آراء بلاغية بغيرها من الآراء التي توافقها أو تخالفها، وما له فيها من آراء تكشف عن شخصيته، وكذا الوقوف علي أصالة مباحث هذا الكتاب و مدي ما عرضت له من فنون بلاغية، ومعرفة حظ التنوخي من تلك الأصالة محاولا الكشف عن المصادر التي استقي منها مادة كتابه، والآراء التي نقلها عن غيره ناسبا إياها إلي صاحبها، أو التي ادعاها لنفسه. لنرى إلي أي حد وصلت جهود التنوخي في علم البلاغة. مع التأكيد علي ما له فيه جهد ملموس. وإضافة إلي ذلك محاولة التعرف علي خصائص وسمات منهجه .

وقد احتوي البحث علي مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس للمراجع ومحتويات البحث.

أما المقدمة، فقد تضمنت أهمية البحث ودوافعه وخطة البحث.

التمهيد، وفيه تناولت التعريف بالتنوخي وكتابه : الأقصى القريب في علم البيان.

المبحث الأول: الفصاحة والبلاغة والبيان عند التنوخي : ويحتوي على ثلاث مسائل
المسألة الأولي : مفهوم الفصاحة والبلاغة والبيان عند التنوخي.
المسألة الثانية : حسن الكلمات المفردة وقبحها.
المسألة الثالثة : حسن الكلام وقبحه.

المبحث الثاني : مسائل علم المعاني عند التنوخي ، وفيه حاولت تتبع ما أورده التنوخي من مسائل تتعلق بهذا المبحث بالعرض والدراسة والتحليل.

---

(١) - ينظر البلاغة تطور و تاريخ للدكتور شوقي ضيف الطبعة الثامنة . دار المعارف ص ٣١٧

المبحث الثالث: علم البيان عند التنوخي : ويتضمن بيان ما أورده التنوخي من صور بيانية، ودراستها والوقوف على منهجه في تناولها.

المبحث الرابع : المحسنات البديعية عند التنوخي : وفيه حاولت الوقوف على الألوان البديعية التي أوردها التنوخي ودراستها وتحليلها.

المبحث الخامس: جهود التنوخي البلاغية والنقدية في الميزان.

الخاتمة: وتتضمن أهم نتائج البحث التي توصلت إليها.

وبعد ... فإني آمل أن يكون هذا البحث قد قدم شيئا مفيدا لكل من يطالعه، وأكون قد وفقت في وضع هذا العالم الجليل في موضعه اللائق به في مصاف البلاغيين، وكذا كتابه بين كتب البلاغيين، فالكتاب بحق جدير بمطالعته ودراسته من كل من هو مهتم بالدرس البلاغي.

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل، وأن يكون خالصا لوجهه الكريم، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

دكتور
رجب محمد سالم رفاعي
استاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية الدراسات الإسلامية
والعربية بدسوق

التمهيد

التعريف بالتنوخي وكتابه الأقصى القريب في علم البيان

أولاً : التعريف بالتنوخي:[1]

اسمه ولقبه وكنيته:

هو الإمام/ زين الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمرو التنوخي لقب بزين الدين،وكنيته أبو عبد الله.

مولده ونشأته:

يعد أعيان المائة السابعة للهجرة النبوية.[2]ولد بدمشق وأقام فى بغداد وأخذ العلم عن علمائها ونهل من معارفهم واطلع على الكثير من كتب العلم فى مختلف الفنون والعلوم.

ثقافته ومن تأثر بهم:

لعل من خلال دراسة كتابه الأقصى القريب نستطيع أن نقف على أهم من تأثر بهم التنوخي ونهل من علمهم ومعارفهم. ويأتي في المقام الأول ضياء الدين بن الأثير، وابن سنان الخفاجي، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر هذا في علوم البلاغة.

وفي علم النحو سيبويه وغيره إذ نراه يقول : ومنها – أي من الحروف – حرف الشرط وهو إنْ وما ينتظم في سلكها نحو لماً وهي عند سيبويه حروف وجوب لوجوب .. وقال المتأخرون أنها ظرف لتوهم اسم دلالتها على الزمان وليس بشيء.

كما اشتمل كتابه على عدة مسائل في علم المنطق، فهو متعدد المواهب، متنوع الثقافات، واسع الإطلاع.

---

[1] - لقد اطلعت على الكثير من كتب التراجم فلم أقف له على ترجمة وافية فيها، كما أن الدكتور شوقي ضيف في كتابه "البلاغة تطور وتاريخ " عندما عرض لكتابه الأقصى القريب لم يذكر عنه شيء ولم ينبه إلى أي كتاب من كتب التراجم يمكن الرجوع إليه للوقوف على ترجمته كما فعل مع غيره من الأعلام وكل ما اعتمدت عليه في التعريف به هو ما جاء في مقدمة كتابه الأقصى وخاتمته وماذكره حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون عند الحديث عن كتاب الأقصى القريب وقد ذكره الزركلى عرضا فى الأعلام وكذلك فعل السخاوي في الضوء اللامع.

[2] - ينظر : الأقصى القريب في علم البيان ص (١)

من تأثروا به [١]

لعل ممن تأثرا به من جاء ذكرهم في خاتمة كتابه – الفقيه الإمام الفاضل الكامل البارع المتقن المحقق عز الدين أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الإمام العالم البارع الأوحد الأمجد كمال الدين أبي العباس أحمد ابن الفقيه جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم عرف بابن الأسيوطي.
كما كتب عنه وتأثر به أخوه لأبيه عبد المجيد التنوخي.

مؤلفاته:
يقول صاحب الضوء اللامع: (له كتب منها الأقصى القريب فى علم البيان) ولم يزد على ذلك.
وفاته:
في كشف الظنون لحاجي خليفة : أن اسم الكتاب " أقصى القرب في صناعة الأدب "
وأن صاحبه توفي سنة (٧٤٩) للهجرة . وأن كتابه نشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٣٢٧هـ [٢]

ثانياً : التعريف بكتاب الأقصى القريب:
يعد كتاب الأقصى القريب في علم البيان للتنوخي من كتب البلاغة المهمة التي يمكن أن يستفيد منها الدارس والباحث . وقد طبع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف مع إجازة منه بروايتها سنة ٦٩٢ للهجرة.
الباعث على تأليفه :
يقول مؤلفه بعد أن حمد الله وصلى وسلم على رسول الله : فإني ألفت هذا المختصر في علم البيان إجابة لسؤال من سأله، ورعاية لما شرفه الله به من طلب العلم وفضله، متوخيا أن يكون كما رجاه وأمله، مبينا على تحقيق المعاني ومبينا، والاختصار، مبتدئا فيه بما يجب تقديمه من القواعد المنطقية، ومعاني الأدوات العربية.[٣]

محتويات الكتاب:
إن المتصفح لكتاب الأقصى القريب يجد أن مؤلفه قد انحرف به عن السكاكي والزمخشري وعبد القاهر جميعاً، ويتضح ذلك في نفس عنوانه، إذ أطلق

---
(١) - ينظر : الأقصى القريب ص ١١٩ ، ١٢٠
(٢) - ينظر : كشف الظنون لحاجي خليفة جـ ١ ص ١٣٧.
(٣) - ينظر : الأقصى القريب في علم البيان ص (٢)

على مباحث البلاغة اسم البيان، متابعا في ذلك ابن الأثير و من لفّ لفّه كابن الزَّملكاني.
وقد استهل الكتاب يبحث منطقي في العلم وانقسامه إلى تصور وتصديق، ويفيض في أبحاث القضية وصورها المختلفة.
ثم يخرج إلى الجملة النحوية ويقارن بين بعض مصطلحات المناطقة والنحاة ، ثم يأخذ في بيان الحروف وما يشبهها من الأسماء والأفعال ، ويبتدئ بإن وأخواتها ، وينتقل إلى حروف الشرط وأسمائه ، ثم تحدث عن نواصب الفعل وعن حروف النداء ، وحروف التنبيه وحروف النفي ، وحروف الاستثناء ، وحروف الجر ومعانيها المختلفة ... إلى غير ذلك من المباحث التي هي من صميم علم النحو .
وكأنما رأى أن يضع هذه المقدمة الطويلة بين يدي حديثه عن البيان، لأن الحاجة تشتد إليها فيه. ويصور ما كان مستقرا في الأذهان لعصره من أن علوم البيان والبلاغة لابد لها من ركائز منطقية ونحوية كثيرة.
ثم أخذ بعد ذلك في بحث علم البيان ، وابتدأ بتحديد معنى الفصاحة والبلاغة ، فيجعل الأولى على هدى ابن الأثير – صفة للفظ والمعنى ، وأما الثانية فصفة للمعنى وحده ، ويقول : إنهما جميعا داخلتان في مادة البيان وحقيقته . ونراه يُعرّف الحقيقة والمجاز ، ثم يتحدث عن حسن الكلمات المفردة وقبحها حديثا يستمده من ابن الأثير وابن سنان الخفاجي ، وأطال هنا في مخارج الحروف وأنواعها مستضيئا بكلام ابن سنان الخفاجي فيها .
ثم يستطرد في سرد الكثير من المباحث البلاغية فنراه يتكلم عن الموازنة بين النثر والنظم ، والاستعارة ثم تركها إلى التشبيه وأطال في سرد أمثلته وأنواعه ، ويقف عند صور من التوسعات في العربية ، وهو يلتحم فيها بابن الأثير التحام واضحا حتى في أمثلته التي يسوقها . وينتقل إلى تقديم أجزاء الجملة بعضها على بعض ومعانيه ، ثم يتحدث عن الاعتراض ، ويخرج منه إلى الإيجاز ويجعل منه المساواة، وهو في ذلك يتابع ابن الأثير ، فإنه لم يجعل بين الإيجاز والإطناب حدًّا وسطا ، ويعرض لصور إيجاز الحذف المختلفة .
ويقف عند الاستئناف ويريد به الفصل مع السؤال المقدر ، ونحس هنا انفصاله عن كل دراسات مدرسة عبد القاهر ، إذ لم يلفته من الفصل إلا هذه الصورة . ثم يتحدث عن الإطناب .. ثم يتحدث عن الكناية والتعريض ، ويجعل من الكناية تأكيد المدح بما يشبه الذم .. ويبحث في التقديم والتأخير لمرجع معنوي ، ويعرض للإتيان بالمظهر دون المضمر . ثم يتحدث عن التخلص والاقتضاب وافتتاحات الكلام وخواتمه على هدى ابن الأثير ، كما تحدث عن التكرار ، والتناسب في الألفاظ والمعاني ، ويتحدث عن التقسيم على هُدى المنطق والنحو .. ويأخذ في ذكر أنواع من البديع كالسجع والجناس ، ولزوم ما يلزم ، والموازنة .
وهذه المباحث سأعرض لها في البحث – إن شاء الله – بالعرض والدراسة والتحليل

والكتاب في مجمله – وإن كان صاحبه لم يفرق فيه بين معان وبيان وبديع – يعد من المراجع البلاغية المهمة للدارس والباحث .

مصادره :

إذا كان التنوخي لم ينص على المصادر التي استقى منها مادة كتابه واعتمد عليها في تأليفه فإن من يطلع عليه ويقارن بينه وبين كتب السابقين عليه من أرباب البيان يجد أن من أهم الكتب التي اعتمد عليها التنوخي في جمع مادة كتابه كتابا المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي .

وأهم ما يتميز به الكتاب أسلوبه السهل ، وتحليل التنوخي لما ذكره من شواهد وأمثلة يكشف عن تعدد مواهبه وسعة ثقافته ، وذوقه الأدبي الراقي.

المبحث الأول

الفصاحة والبلاغة والبيان عند التنوخي:

ويحتوي علي ثلاث مسائل

المسألة الأولى: مفهوم الفصاحة والبلاغة والبيان عند التنوخي

المسألة الثانية: حسن الكلمات المفردة وقبحها

المسألة الثالثة: حسن الكلام وقبحه

المسألة الأولى
مفهوم الفصاحة والبلاغة والبيان والفرق بينها عند التنوخي

المتصفح لكتاب التنوخي- كما أشرت عند التعريف به- يجد أنه ينحرف به عن منهج السكاكي والزمخشري وعبد القاهر جميعا، ويتضح ذلك في نفس عنوانه، إذا أطلق علي مباحث البلاغة اسم البيان، متابعا في ذلك ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر[١]، ومن لفَّ لفّه، كالزّملكاني صاحب كتاب "التبيان في علم البيان"[٢].

وقد بدأ التنوخي بحث علم البيان بتحديد معني الفصاحة والبلاغة والبيان فيقول: الفصاحة والبلاغة والبيان ألفاظ تشترك في كثير من المعاني، ويختص كل واحد منها بما ليس للآخر، لكن الفصاحة أصلها الخلوص من الشوائب لقولهم: أفصح اللبن، وفصح إذا خلص من اللباء، وذلك في الكلام لا يكاد ينفك عن أن يكون بيناً؛ وكذلك البلاغة مع كل واحد من الفصاحة والبيان... ومعني البلاغة: انتهاء الشيء إلي غايته المطلوبة.... فالفصاحة تكون بالنسبة إلي اللفظ من وجهين:
أحدهما: أن يخرج المتكلم الحروف من مخارجها ويخلص بعضها من بعض.
والثاني: أن يكون اللفظ مما تداوله فصحاء العرب وكثر في كلامهم. وتكون بالنسبة إلي المعني وهو أن يكون المعني مخلصا من غيره.

والبلاغة تتعلق بالمعني فقط: وهو أن يبلغ المعني من نفس السامع مبلغه .. والبيان في عرف الكلام أتم من كل واحد من الفصاحة والبلاغة، لأن كل واحد منهما من مادته وداخل في حقيقته، ولذلك قلنا: علم البيان، وتكلمنا فيه في الفصاحة والبلاغة وغيرها، ولم يوضع علم للفصاحة ولا علم للبلاغة[٣].

هذا ما ذكره التنوخي عن معني الفصاحة والبلاغة والبيان وصلة كل منها بالآخر والفرق بينها.
وبالتأمل فيما ذكره نري أنه يشير إلي أن الألفاظ الثلاثة تشترك في كثير من المعاني دون أن يذكر شيئا منها ولعله يعني ما قاله الإمام عبد القاهر حيث قال: " فصل في تحقيق القول علي البلاغة والفصاحة، والبيان والبراعة، وكل ما شاكل ذلك، مم يعبر به عن فضل بعض القائلين علي بعض، من حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين

---

[١] - هو أبو الفتح، نصر الله بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري اللغوي الأديب صاحب المؤلفات القيمة منها المثل السائر، والبرهان في علم البيان وغيرها توفى سنة ٦٣٧هـ.
[٢] - هو عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني الدمشقي كان فاضلا خبيرا بالمعاني والبيان والأدب من مؤلفاته كتاب التبيان في علم البيان وهو أشهر مؤلفاته توفي سنة ٦٥١هـ.
[٣] - ينظر: الأقصى القريب في علم البيان ص٣٣.

من الأغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم[١]. فكل هذه المعاني والمقاصد تشترك هذه الألفاظ في الدلالة عليها.

ثم فرق بينها فحدد معني الفصاحة وجعلها صفة للفظ والمعني، وحدد معني البلاغة وجعلها صفة للمعني وحده، وكأني به قد تأثر بابن الأثير ونهج نهجه[٢].

كما نراه يقرر أن البيان أتم من الفصاحة والبلاغة معللا لما ذهب إليه من أن كل واحد منهما من مادته وداخل في حقيقته، ولهذا أطلق علي مباحث البلاغة علم البيان، كما أفاد- علي حد قوله- أنه لم يوضع علم للفصاحة ولا علم البلاغة ولعله في ذلك – كما أشرت- متأثر بابن الأثير.

هذا ويلاحظ أن التنوخي قد وقف عند المعني اللغوي للفصاحة والبلاغة ولم يشر إلي مفهومهما عند البلاغيين وكأني به لم يطلع علي كتابي الصناعتين لأبي هلال العسكري والعمدة لابن رشيق القيرواني فقد أورد كل منهما كثيرا من كلام العلماء في معني الفصاحة والبلاغة والبيان[٣].

---

[١] - ينظر: دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر ت الدكتور: عبد المنعم خفاجي ص٩٢.
[٢] - ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير جـ١ ص٩٠- ٩٤ ت الدكتور: أحمد الحوفي والدكتور: بدوي طبانه.
[٣] - ينظر: الصناعتين لأبي هلال العسكري ص (١٥- ٢٣)، والعمدة لابن رشيق ص(٢١٦، ٢٤٢، ٢٥٤).

المسألة الثانية
حسن الكلمات المفردة وقبحها

أبان التنوخي أن الكلمات المفردة منها ما يستحسن، ومنها ما يستقبح، وذلك يرجع إلي أمور منها:
تباعد مخارج الحروف وتقاربها، ومنها المألوف والحوشي، ومنها ما لم تبتذله العامة وما ابتذلوه، ومنها أن تكون الكلمة وضعت في أصل وضعها غير مستقبحة المعني ثم صرفها الاصطلاح آنفاً إلي ما يستقبح، ومنها التصغير فيما يليق به وما لا يليق، ومنها التركيب من أخف الأوزان وأثقلها، ومنها ما تخف حركته أو تثقل ...[١]

وبالتأمل في كلام التنوخي نجد أنه مقتبس من حديث ابن سنان الخفاجي وابن الأثير عن حسن الكلمات المفردة وقبحها إلا أنه كثيرا ما كان ينافشه ويبدي رأيه.
ثم إنه بالمقارنة بين ما ذكره التنوخي وما ذكره ابن سنان الخفاجي وابن الأثير في هذا الموضوع نجد أن كلام التنوخي جاء في غاية الإيجاز حيث إنه سرد شروط حسن الكلمة وقبحها ثم أتبع ذلك بأمثلة قليلة.

أما ابن سنان فقد بسط الحديث عن فصاحة الكلمة وشروط فصاحتها، ومتى تكون حسنة فصيحة ومتى تكون قبيحة غير فصيحة، وساق الكثير من الأمثلة التي توضح ذلك[٢].

وقد تبعه في ذلك ابن الأثير إلا أنه ناقشه في كل ما ذكره من شروط وأبدى في ذلك رأيه فأقرّ بعضها واعترض على بعضها الآخر[٣].

وقد أرجع الخطيب فصاحة الكلمة إلي خلوصها من تنافر الحروف، والغرابة، ومخالفة القياس اللغوي، ثم علامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتعهم لها كثيرا- هذا إذا لم يكن لها مرادف- أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها[٤]- هذا إذا كان لها مرادف.وقد ذكر التنوخي في أحد وجهي الفصاحة الموثوق بعربيتهم لها كما في الإيضاح.

وقد أشفع التنوخي حديثه عما به تستحسن الكلمة أو تستبشع بالكلام عن مخارج الحروف وأنواعها، وصفات كل حرف مستضيئا بكلام ابن سنان في ذلك[٥].

---

[١] - ينظر: الأقصى القريب في علم البيان ص ٣٣.
[٢] - ينظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ط دار الكتب العلمية بيروت ص ٦٤ وما بعدها.
[٣] - ينظر: المثل السائر لابن الأثير. جـ١ ص١٧٢ وما بعدها.
[٤] - ينظر: الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح الشيخ عبد المتعال جـ١ ص ٤٢ وما بعدها.
[٥] - ينظر: سر الفصاحة ص (٢٩- ٣٢)، والأقصى القريب في علم البيان ص (٣٤- ٣٥).

كما عرض عرضا دقيقا للحوشي الغريب ، والمبتذل الذي تداولته العامة ، وصيغة التصغير واستعمالاتها .

فعن الحوشي الغريب يقول : (وينبغي للمتكلم أن يجتنب حوشي الكلام إلا أن ألجأت إليه ضرورة ، و الحوشي والوحشي بمعنى؛ وهو الذي يبعد فهمه علي أكثر من يسمعه، ولا يكون ذلك معيبا إلا إذا قام مقامه غيره من البين لأكثر الناس، وليس ذلك بالنسبة إلي من كان لغته من العرب، ولا من تكلم معهم به)[١].وهذا أحد وجوه الغرابة التي ذكرها الخطيب.

وبذلك نري التنوخي قد عرف الوحشي ، وبين متى يكون معيبا ، ومتى يكون مقبولا وغير معيب . مما يسمح لنا القول بأن الوحش في نظره أمر نسبي يرجع إلي من كان لغته ذلك من العرب ، أو من تكلم معهم به وكان مستأنسا عندهم

لذا نراه يدلل علي ذلك بما روي أن رسول الله ﷺ خاطب طهفة بن أبي زهير النهري فقال [اللهم بارك لهم في محضها و مخضها وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر ، وافجر له الثمر ، وبارك له في المال والولد . من أقام الصلاة كان مسلما ، ومن أتي الزكاة كان محسنا ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا لكم يا بني نهد، ودائع الشرك و وضائع الملك ، لا يُلطط في الزكاة ، ولا يلحد في الحياة ، ولا يتثاقل عن الصلاة] فقال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : يا رسول الله نحن بنو أب واحد وربينا في بلد واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره[٢].

وهذا يدل علي حسن تذوق التنوخي وحسه المرهف وأنه ناقد بصير بمرامي الكلام

وعن المبتذل يقول : " ومما ينبغي أن يعدل عنه إلي غيره من الألفاظ ما ابتذلته العامة وكثر في كلامها ، وإن كان صحيحا كالقفا والرقبة، والحَسَن آن يعدل عنه إلي الظهر والعنق".[٣]
وإذا كان ما أشار إليه التنوخي مقبولا إلا آن ما مثل به للمبتذل فيه نظر حيث إن كلمة القفا من الفصيح الذي استعملته العرب وليس من آلمبتذل وكذا (الرقبة) إذ وردتا في فصيح الكلام.
فعن كلمة (القفا) يقول ابن منظور:(القفا. مقصور، مؤخر العنق، ألفها واو، والعرب تؤنثها، والتذكير أعم. ويقال للشيخ إذا هَرِم: رُدَّ على قفاهُ وَرُدَّ قفا؛ قال الشاعر:

---

[١] - ينظر: الأقصى القريب في علم البيان ص ٣٥ والإيضاح ج١ ص ٤٣.
[٢] - ينظر:المرجع السابق ص٣٥. حديث طهفة بن زهير النهدي: أنظر الإصابة في معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني جـ ٣ ص ٥٤٤-٥٦٤ ، والعلل المتناهية لابن الجوزي جـ ١ ص ١٨٤ ، وإسناده فيه ضعف ، معجم ابن الأعرابي جـ ٤ ص ٤٩٤.
[٣] - ينظر: المرجع السابق ص ٣٦.

إن تلق ريب المنايا أو تُرَدَّ قفا ∴ لا أبكِ مِنْكَ على دين ولا حسب

وفي حديث مرفوع:[يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد، فإذا قام من الليل فتوضأ انحلت عقدة]، قال أبو عُبيد: يعني بالقافية القفا[١].

وعن كلمة (الرقبة) يقول ابن منظور: الرقبة: العنق، وقيل: أعلاها، وقيل: مؤخر أصل العنق، والجمع (رَقَبٌ ورقبات ورقاب وأرقب).... يقال: أعتق الله رقبته، ولا يقال: أعتق الله عنقه. وفي الحديث: كأنما أعتق رقبة. قال ابن الأثير: وقد تكررت الأحاديث في ذكر الرقبة وعتقها، وتحريرها وفكها، وهي في الأصل العنق، فجعلت كناية عن جميع ذات الإنسان.ومنه قوله تعالى {فَكُّ رَقَبَةٍ}، { فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ }[٢].

أما بالنسبة للتصغير فإن التنوخي يري أنه قد يرد لمعان، وأصله الصغر في المقدار وإذا ورد في المعنى كان تشبيها له بالمقدار؛ فهو إذا للتحقير، والشيء قد يحب لصغره فيقال فيه تصغير التحبيب، والمعنى قد يحقر في نفسه ويعظم أثره فيقال فيه تصغير التعظيم.. أمثلة ذلك: تصغير الشيء لا للتحبيب مثل جبيل في الأجسام.. ودريهمات وأجيمال في العدد.. وللتحبيب مثل يا أخي ويا بني ومن قول عنترة:

عجبتْ عبيلة من فتى مبتذل ∴ عاري الأشاجع شاحب كالمنصل

والتصغير من جهة المعني قد يكون لمجرد التحقير كقولنا للرجل الجبان أو الجاهل رجيل، وقد يكون لتعظيم أثره وحقارته كقوله: دويهية تصفرُّ منها الأنامل[٣].

وكأني بالتنوخي يشير إلى أغراض التصغير. وإذا كان هذا من موضوعات علم الصرف فإنه يقصد بذكره في علم البيان المعاني التي قد يأتي إليها وفقا لما يقتضيه المقام وسياق الكلام.

وبالتأمل فيما ذكره التنوخي وما قاله ابن سنان الخفاجي في هذا الموضوع نجد أن التنوخي قد استمد كلامه من كلام ابن سنان ولم يأت بجديد يذكر في هذا الموضوع بل إن كلام التنوخي هنا في غاية الإيجاز، أما ابن سنان فقد بسط الحديث وأكثر من ذكر الشواهد وشرحها[٤].

كما أوضح أن مما ينبغي أن يجتنب في الكلام ما نقلته العامة عن أصله واستعملته في غيره مما يقبح ذكره أو يستسمج كتخصيص الحجر بالمحل المخصوص، وإبدال

---

[١] - ينظر: لسان العرب لابن منظور مادة (قفا). حديث(إن الشيطان يعقد على قفا أحدكم)؛ أنظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٣٨، والبخاري جـ ١ ص ٣٨٣ ط بيروت، وابن حبان جـ ٦ ص ٢٩٣.

[٢] - المرجع السابق مادة (رقب).

[٣] - ينظر: الأقصى القريب في علم البيان ص٣٦ بتصرف.

[٤] - ينظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٨٩- ٩٢.

السين بالصاد في الصرم، والصرم القطع.. والنقانق جمع نِقنق قد نقلته العوام إلي الطعام المخصوص، وكذلك القطائف والقطيفة نقل من الأكسية المخملة إلي الطعام المخصوص.. وفي هذه الألفاظ المنقولة عن العرب ما تغير عن وضعه في خلق الإنسان لكن لم يخرج عن كونه مستعملا في الحُسن أو القبح: قالت العرب: الصباحة في الوجه، والوضاءة في البشرة، والجمال في الأنف، وحلاوة في العينين والظرف في اللسان، والرشاقة في القد.. وكاستعمال النحس في الخسيس من الناس وغيرهم[١].

وبالنظر فيما ذكره التنوخي وقول ابن الأثير في هذا الموضوع نجد أن التنوخي قد استقاه من ابن الأثير، ثم ساقه بأسلوبه.

يقول ابن الأثير: ومن أوصاف الكلمة أن لا تكون مبتذلة بين العامة. وذلك ينقسم قسمين: **الأول:** ما كان من الألفاظ دالا على معنى وضع له في أصل اللغة، فغيرته العامة وجعلته دالا علي معنى آخر، وهو ضربان:

الأول: ما يكره ذكره، كقول: أبي الطيب[٢]

أذاق الفواني حُسْنُهُ ما أذاقني ∴ وعَف فجازاهُنَّ عني بالصَرْم

فإن (معنى) لفظة (الصرم) في وضع اللغة هو القطع، يقال (صرمه) إذا قطعه، فغيرتها العامة، وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره، فأبدلوا السين صاداً. ومن أجل ذلك استكره استعمال هذه اللفظة، وما جرى مجراها...

وأما الضرب الثاني:

وهو أنه وضع في أصل اللغة لمعنى، فجعلته العامة دالا على غيره، إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره. وذلك كتسميتهم الإنسان (ظريفا) إذا كان دمث الأخلاق، حسن الأخلاق، حسن الصورة أو اللباس، أو ما هذا سبيله (والظرف) في أصل اللغة مختص بالنقط فقط.

وقد قيل في صفات خَلق الإنسان ما أذكره ها هنا وهو: الصباحة في الوجه، الوضاءة في البشرة، الجمال في الأنف...[٣]

---

[١] - ينظر: الأقصى القريب ص٣٦ بتصرف يسير.
[٢] - ديوان المتنبي جـ٤ ص٥٥ من قصيدة يمدح بها الحسين بن إسحاق التنوخي.
[٣] - ينظر: المثل السار جـ١ ص ١٩٦- ١٩٨.

المسألة الثالثة: حسن الكلام وقبحه

أشار التنوخي إلي عدة أمور ينبغي مراعاتها في الكلام كي يكون حسناً مقبولا غير مستقبح فقال:
إنه ينبغي أن يكون اللفظ والمعنى متساويين كما تساوى اللفظة الواحدة معناها؛ ومعنى ذلك أن لا يكون اللفظ محتملا لمعان فيشكل على السامع المقصود، وإن ترجح لاحتمال المرجوح، فإنه إذا زاد اللفظ على المعنى كان للزائد معنى يزيد على المعنى المطلوب، وإذا نقص اللفظ عن المعنى سقط جزء من المعنى المطلوب...
وأن تكون الكلمات المتجاورة متناسبة ليس بينها تنافر من جهة الاستعمال، ولا من جهة الحروف[١].

وبالنظر في كلام التنوخي نجد أنه ذكر أمرين من الأمور التي ينبغي مراعاتها لحسن الكلام.
الأول: أن يكون اللفظ والمعنى متساويين كما تساوي اللفظة الواحدة معناها وهو ما عبر عنه العباس بن حسن العلوي في صفة بليغ: ألفاظه قوالب لمعانيه، وقوافيه معدة لمبانيه[٢].

وعن هذا الشرط يقول ابن سنان الخفاجي: فأما المساواة بين اللفظ والمعنى فكما وصف بعض الأدباء رجلا فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر، وحد المساواة المحمودة هو: إيضاح المعنى باللفظ الذي لا يزيد عنه ولا ينقص[٣].

وإذا كان التنوخي لم يذكر مثالا واحدا لهذا الشرط حيث إنه بالمثال يتضح المقال، فإن ابن سنان الخفاجي قد ساق له مجموعة من الأمثلة، منها قول زهير:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة ∴ وإن خالها تخفي على الناس تعلم

وقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ∴ ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

الثاني: أن تكون الكلمات المتجاورة متناسبة ليس بينها تنافر من جهة الاستعمال، ولا من جهة الحروف. إلا أنه أيضا لم يمثل لما فيه تنافر بين كلماته.
وقد أشار إليه ابن سنان عند حديثه عن فصاحة الكلام بقوله: إن القسم الثاني من الفصاحة صفات توجد في التأليف الأول منها أن يجتنب الناظم تكرر الحروف

---

(١). - ينظر: الأقصى القريب.ص ٣٨
(٢) - ينظر: العمدة لابن رشيق جـ١ ص١٢٧.
(٣) - ينظر: سر الفصاحة ص٢١٨.

المتقارب في تأليف الكلام. وساق له مجموعة من الأمثلة التي فيها تنافر كلمات منها قول الشاعر:

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما ∴ كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

ثم عقب على البيت بقوله: وليس يحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار أكثر من سماعة[١]

فالتنوخي – كما نرى – قد تأثر بمن سبقه إلا أنه أحيانا ما يكتفي بذكر ما ينبغي أن يراعى في فصاحة الكلمة أو الكلام دون أن يمثل له ولكن يحسب له أسلوبه المتميز.

وإذا كان التنوخي قد جعل من حسن الكلام- كما ذكرنا- أن يكون اللفظ والمعنى متساويين، فإنه لم يغفل مقامات الكلام،ومقتضيات الأحوال، إذ نراه يعقب على ما ذكره بقوله: (وقد يطلب في بعض الأماكن الاختصار لأمور كسأم السامع، وفوات الغرض عند التطويل، أو فوات أمر آخر بسبب التطويل، وقد يطلب التطويل لأمور كتأنيس السامع وإرهابه، وتهويل المعنى وتعظيم أمره)[٢].

رأي التنوخي في قضية اللفظ والمعنى:

إذا كان الكلام قد كثر حول قضية اللفظ والمعنى بين من يحفل باللفظ ويفضله على المعنى، وبين من يحفل بالمعنى ويفضله على اللفظ؛ فإن التنوخي قد أدلى بدلوه في هذا الموضوع، فنراه مع من يهتم بالمعنى ويحفل به ويعلل لذلك إذ نراه يقول: (واعلم أن العناية بالمعنى أعظم من العناية باللفظ لتمام غرض المتكلم من إفهام السامع فلا يفي حسن اللفظ بما نقص من المعنى، والمعاني وإن اختلفت في الجودة والرداءة، فقد يراد الجيد لذاته، وقد يراد الرديء لذاته، فيقبح وضع الجيد في موضع الرديء، كما يقبح وضع الرديء في موضع الجيد، ويمدح المؤلف بابتداع المعنى الذي لم يسبق إليه، وينبغي أن يقال الذي لم يسمعه قبل ابتداعه، فإن السبق إلي المعنى يقل لكثرة ما قال الناس) وللجاحظ كلام قريب من هذا [٣].

وإذا كان التنوخي قد صرح برأيه في قضية اللفظ والمعنى؛ فإنه لم يفته أن يكشف عن رأي غيره في هذه القضية حيث قال "وفي الناس من يعتني بالمعنى دون اللفظ كمعاني المتنبي العالية مع ألفاظه المعجرفة ، وفي الناس من يعتني باللفظ دون المعنى وهو دون تلك الطبقة. كقول أبي تمام:

وأحسن من روض تفتحه الصَّبا ∴ بياضُ العطايا في سواد المطالب

---

[١] - ينظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص٩٧.

[٢] -ينظر: الأقصى القريب.ص٣٨.

[٣] - ينظر: المرجع السابق ص٣٨. والبيان والتبيين ج١ ص٧٥.

اللفظ المشترك في غاية الحسن ، والمعنى إذا تحقق ليس بجيد فإن التفضيل لا يقع إلا بين مشتركين في أمر حقيقي أو مجازي، ولا اشتراك بين حقيقي ومجازي، وحسن الروض تفتحه الصبًا حقيقي مشاهد بالحس، وبياض العطايا وسواد المطالب مجازيان لأنهما غير مدركين بالحس[١].

ومما يدل على سعة إطلاع التنوخي ، وحسن تذوقه، ونقده للأساليب، القائم على الوعي بمرامي الكلام وغاياته. ما أورده من آراء لبعض العلماء ومناقشاته وتحليلاته لها، وغوره في فهمها وإبداء رأيه.

فمن ذلك قوله: ومن الناس من قال إن قول بعض العرب.

ولما قضينا من منى كل حاجة ∴ ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ∴ وسالت بأعناق المطى الأباطح

مما لفظه في غاية الحسن ومعناه ضعيف، وليس كذلك ؛ بل معناه أيضا في غاية الحسن والشرف: فإن قوله – قضينا من كل حاجة - عنى به العبادة وأفعال الحج، ويدل عليه قوله – ومسح بالأركان من هو ماسح – ولما فرغ من أفعال النسك أخذ في ذكر الانصراف، وأخذ بأطراف الأحاديث فيه، وهو من أشرف أحوال المحبين؛ فإن فيه من الإيماء إلى المعاني وعدم التصريح بها ما هو من أجل الأشياء في هذا الموضوع، وفيه معنى لطيف مطلوب، وذلك أن هذه الحال قريبة من التفرق ولا تحتمل اتساع الأحاديث بجملتها، فلذلك قال بأطراف الأحاديث، لأنه يأخذ من كل حديث في نفسه طرفا، والأخذ بأطراف الأحاديث – أيضا – بين الأدباء والفضلاء من أجلّ المعاني لدلالته على غزارة علومهم، ومعرفتهم بالجمل من الأطراف[٢].

فالمتأمل في شرح وتحليل التنوخي لهذه الأبيات يقف على حسن تذوقه وقدرته على نقد الأساليب القائم على الإحساس والتذوق، فقد أشار إلى من يرى أن هذه الأبيات مما حسن لفظه وضعف معناه أمثال ابن قتيبة[٣]. وأبي هلال العسكري حيث يقول عن هذه الأبيات (وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى، وهي رايقة معجبة[٤].

كما أوضح رأيه وهو – كما ريناه – أن هذه الأبيات ألفاظها في غاية الحسن ومعناها أيضا في غاية الحسن والشرف. وهذا ما أميل إليه.

---

[١] - ينظر: الأقصى القريب.ص (٣٩)
[٢] - ينظر: المرجع السابق ص (٣٩- ٤٠)
[٣] - ينظر : الشعر والشعراء جـ ١ ص ٦٦
[٤] - ينظر : كتاب الصناعتين ص ٥٩

وقد نقل أستاذنا الدكتور: **السعدي فرهود** مجموعة من آراء النقاد حول هذه الأبيات ثم عقب عليها بقوله: وخلاصة هذا كله- وكما صرح الإمام عبد القاهر[١]- أن الحسن راجع إلي المعاني، من حيث وقعت الاستعارة موقعها، وجاء ترتيب الكلام على الوجه الذي يوصل المعنى إلي القلب واللفظ إلى السمع، وسلم الكلام من الحشو غير المفيد، ومما يدانيه من طفيليات المعاني، كما سلم من التقصير الذي يفتقر معه السامع إلى طلب المزيد[٢].

ولا يغيب عن التنوخي ما أشار إليه النقاد العرب من المفاضلة بين النثر والنظم، ورأيه في ذلك؛ فذكر أن الناس قد اختلفوا في تفضيل النثر على النظم، والنظم على النثر، ورجح كل واحد منهما بترجيحات يمكن أن تزيف بالأجوبة عنها. ثم أشار إلى رأيه بقوله: والذي عندي في ذلك أن الشعر فيه ما في النثر وزيادة الوزن. والذي يفهم منه أن الشعر يفضل النثر لما فيه من الوزن.

كما نراه يدافع عن رأيه، فيفرض ما يمكن أن يرد به على ما ذهب إليه من تفضيل الشعر على النثر ويجيب عنه فيقول: ولا يرد كون القرآن الكريم غير منظوم فإنه أريد به تعجيز كل من يتكلم بالعربية، والذين يتكلمون بها جميعهم في طباعهم الكلام المسجوع، وليس النظم في طباع جميعهم، فلو كان منظوماً لجاز أن يقول من لا طبع له ما أنا من أهله فأعجز به، كما يقول الأعجمي ما أنا من أهل العربية فأعجز بالكلام العربي[٣].

---

[١] - ينظر: دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر. شرح وتحقيق د / خفاجي ص٧١٧.
[٢] - ينظر: نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب ص٣١٨.
[٣] - ينظر: الأقصى القريب في علم البيان ص٤٠.

المبحث الثاني
مسائل علم المعاني عند التنوخي

إن المتأمل في كتاب التنوخي، والباحث عن المسائل المتعلقة بعلم المعاني يجد أنها مبثوثة في ثنايا الكتاب حيث إن التنوخي كان له منهجه الخاص في دراسة المسائل البلاغية، إذ نراه يتناولها جميعا تحت اسم : المعاني التي يبحث فيها عن علم البيان. فلم يفصل المسائل المتعلقة بعلم المعاني عن المسائل المتعلقة بعلم البيان، كما لم يفصل مسائل البديع عنهما جميعا كما فعل السكاكي حيث قسم البلاغة إلى معاني وبيان ووجوه تحسين الكلام، والتي أطلق عليها الخطيب القزويني علم البديع،إلا أن التنوخي – فيما أرى – قد تأثر بفكر السكاكي المنطقي في صدر كتابه، حيث استهله بالكلام عن التصور والتصديق، ومسائل من علم النحو، واختلف عنه في تناوله للمسائل البلاغية، إذ يغلب عليه – فيما ا أرى – تأثره بابن الأثير ومن حذا حذوه.

وفي هذا المبحث سأحاول تتبع المسائل المتعلقة بعلم المعاني عند التنوخي وجمعها، وتناولها بالعرض والدراسة والتحليل، كاشفا عن أهم ماله من لمسات فنية وتذوقية، كما سأحاول كشف النقاب عن أهم من تأثر بهم في دراسته لهذه المسائل، وأوجه هذا التأثر.
وبعد .. فإلى دراسة مسائل علم المعاني عند التنوخي.

المسألة الأولى " الالتفات "

وقف التنوخي عند عدة صور من التوسعات في اللغة العربية تعد في جملتها من صميم الدراسات البلاغية، وعلى وجه الخصوص من مسائل علم المعاني من ذلك الرجوع من الغيبة إلى الحضور، ومن الحضور إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى ضمير المتكلم، ومن ضمير الواحد إلى ضمير الجمع، ومن ذلك الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وبالعكس. والرجوع من مخاطبة الواحد إلى مخاطبة الاثنين، و إلى مخاطبة الجمع، ومن مخاطبة الاثنين إلى مخاطبة الواحد وإلى مخاطبة الجمع، ومن مخاطبة الجمع إلى مخاطبة الواحد وإلى مخاطبة الاثنين، ومن ذلك استعمال الفعل الماضي في موضع المضارع، واستعمال الفعل المضارع في موضع الفعل الماضي.[١]

وإذا كانت هذه الصورة لم يدرسها التنوخي تحت اسم الالتفات، فإنها تعد صورا للالتفات عند ابن الأثير[٢]، مما يجعلنا نصرح بأن التنوخي في هذا الموضوع يلتحم مع ابن الأثير التحاما واضحا حتى في أمثلته التي ساقها،

---

[١] - ينظر : الأقصى القريب ص (٤٤- ٤٨)
[٢] - ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر جـ ٢ ص (١٦٧ – ١٨٦)

وسمح لي أن أعنون لهذه الصور بهذا العنوان. وإن كان التنوخي لم ترد في كتابه كلمة الالتفات أصلا.
و التنوخي – هنا - تظهر شخصيته المتميزة في شرح وتحليل ما ساقه من شواهد وأمثلة لهذه الصور – كما سنرى عند عرضها ومناقشتها – تدل على حسن تذوقه كناقد ماهر بأسرار الكلام ، ومعرفة مراميه .
وإليك هذه الصور وفقا لما أورده التنوخي.

أولا : الرجوع من الغيبة إلي الحضور ، ومن الحضور إلي الغيبة .
ومن أمثلة التي أوردها التنوخي لذلك ما جاء في فاتحة الكتاب من أولها إلي {مَلِكِ يَوْمِ الدِّين}[١] متعلق بالغائب ، وهو حمد الله وتعظيمه بذكر أسمائه العظام ، وما بعد ذلك رجع فيه من الغيبة إلي الخطاب .
يقول التنوخي معلقا علي ذلك : ولا يخلو شيء من ذلك مع توسع العرب في كلامهم عن معان لطيفة وفوائد ؛ فمراد الله تعالي أن نصلي بالفاتحة فابتدأ بتعظيمه علي سبيل الغيبة ؛ فإن في ذكر الحاضر بألفاظ دالة علي الغيبة إشعارا بعظيمه ، ثم انتقل من الغيبة إلي مخاطبة الحاضر إشعارا بالقرب المستحق من الحمد و التعظيم مع التوسط في الأمر بالإخبار بعبادته والاستعانة به فقال تعالي : {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ثم انتقل من ذلك إلي السؤال والدعاء بقوله : {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} إلي أخر السورة، وفي ما بقي من السؤال إضافة النعمة إلي ضمير المخاطب ، وهو من الحضور ، فقال الذين أنعمت عليهم ، ووصفهم بغير المغضوب عليهم علي سبيل الغيبة ، ولم يقل غير الذي غضبت عليهم أدبا مع الله تعالي في أنه لم يضف الغضب إليه مخاطبا .[٢]

و مما يدل علي حسن تذوق التنوخي ، وأسلوبه المتميز في تحليله للأساليب .
ما أورده حول قول عنترة :[٣]

أمن سهية دمع العين تذريف ∴ لو أن ذا منك قبل اليوم معروف

تجللتني إذ أهوي العصا قبلي ∴ كأنها صنم يعتاد معكوف

حيث يقول معلقا علي هذين البيتين : لما تعجب منها ذكرها علي سبيل الغيبة مخاطبا لنفسه ثم انتقل إلي خطابها تقربا إليها، ثم انتقل إلى الثناء عليها، وذكر إحسانها إليه على سبيل الغيبة إفشاء لذلك وبثا له، ولو خاطبها به لجاز أن يكون مقتصرا على ذلك، وهذا من أفصح كلام البشر وأبلغه وألطفه بيانا[٤].

---

[١] - سورة الفاتحة : الآيات (٢ – ٧)
[٢] - ينظر : الأقصى القريب ص (٤٤)
[٣] - ينظر :ديوان عنترة بن شداد
[٤] - ينظر : الأقصى القريب ص (٤٥)

ثانيا: الانتقال من الغيبة إلى ضمير المتكلم، ومن ضمير المتكلم إلى الغيبة.
ومنه قوله تعالى {وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ }[1]
فانتقل من الغيبة إلى ضمير نفسه، ثم من ضمير نفسه إلى الغيبة، ولو قال : وبعث منهم لكان الظاهر في هذه الواو أنها واو العطف، وفي قوله : وبعثنا ظهرت المخالفة "المخالفة" بين الغيبة والحضور، فيظهر حينئذ أن الواو للحال، وحينئذ يكون معنفا لهم بذكر نعمة عليهم مع مخالفتهم ونقضهم الميثاق، ثم انتقل إلى الغيبة بقوله " وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ " مبينا أن هذا القول مع أخذ الميثاق، وليس معطوفا على الحال التي امتن بها وذلك مما ينبغي أن يحافظوا على الميثاق لأجله؛ فمحافظتهم على الميثاق تجب لوجهين:-
أحدهما : منته عليهم ببعث النقباء منهم والرفع لقدرهم لذلك.
الثاني : إعلامهم بأنه معهم[2].

وإذا كان تحليل التنوخي للآية يدل على حسن تذوقه إلا أنه لم يوضح موطن الشاهد مثل ابن الأثير . وبيان ذلك أنه في الآية انتقل من الغيبة في قوله " ولقد أخذ الله " حيث إن الاسم الظاهر من قبيل الغيبة ، إلى ضمير المتكلم الذي عبر عنه التنوخي بضمير النفس في قوله : " وبعثنا " ثم انتقل منه إلى الغيبة في قوله : " وقال الله إني معكم "

تعقيب :
عندما نقارن بين هذه الصور وبين صور الالتفات عند السكاكي ومن لف لفه كالخطيب وشراح التلخيص نجد أن هذه الصور الأربع التي أوردها التنوخي من أحد صور الالتفات الست المعروفة عند السكاكي . ولم يتعرض التنوخي للصورتين الأخيرتين وهما الالتفات من التكلم إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى التكلم .
يقول السكاكي : واعلم أن هذا النوع : أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص المسند إليه ، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر ، ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء علم المعاني ، والعرب يكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القبول عند السامع ، وأحسن تطرية لنشاطه ، وأملأ باستدرار إصغائه [3]
ثالثا : الانتقال من ضمير الواحد إلى ضمير الجمع إذا كانا عائدين إلى المبهم كمن وما بمعنى الذي وشرطا واستفهاماً .

---

[1] - سورة المائدة الآية (١٢)
[2] - ينظر : الأقصى القريب للتنوخي ص (٤٥)
[3] - ينظر : مفتاح العلوم ص(١١٢)

ذكر التنوخي أن هذا الموضع هو ما ذهب إليه ابن عطية والزمخشري وغيرهما ونقل عنهم : أنه إذا ابتدئ بالمفرد منهما جاز أن يؤتى بعده بضمير الجمع وإذا ابتدئ بضمير الجمع لا يجوز الإتيان بضمير المفرد بعده .[١]
ثم علق على كلامهم بما يفيد تأييده واستحسانه فقال : وأقول إن ذلك لأن العائد إليه مفرد في اللفظ ويحتمل مدلوله الجمع ، فإذا أعاد إليه الضمير المفرد فهو باق على ما كان عليه من الإبهام ، فيجوز أن يؤتى بما يحتمله اللفظ ، وإذا أتى بضمير الجمع فلا يعود إلى المفرد ، وكتاب الله مشحون بذلك ومنه قوله تعالى : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ} [٢]
أفرد الضمير في يقول وأتى بعده بضمائر الجمع ، وما أتى بعد ذلك بينها ولا بعدها بمفرد ، وهذا الامتناع إنما يكون عند إرادة الحقيقة ، وأما لو تجوز فلا امتناع فيكون حينئذ هذا التعليل للأولوية ، ولذلك كثر في القرآن العزيز ، لأنه لفصاحته لا يأتي إلا بالأولى ، وقد جاء قوله تعالى : { فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ} [٣] فقد أتى بالضمير في " يقول " مفرداً وأتى بعده بضمير الجمع في قوله : " ربنا وآتنا " وبضمير المفرد بعدهما في قوله : " وماله في الآخرة من خلاق "

ثم يفرض التنوخي اعتراضا ويجيب عنه فيقول : فلو قيل : إن من يقول واحد ودعا له ولغيره على سبيل الجمع فلم يتعين الجمع بذلك فأتى بالمفرد بعده ، قلنا الأمر بخلاف ذلك ، لأن بعض من الناس يقولون ليس بواحد فقط بل آحاد ، فيكون الضمير عائدا إليهم وإنما أتى بالمفرد ههنا لكون المعبر عنه بمن بعضا ، والبعض واحد ، وإن كان محتملا للجمع ، ولا تنتفي البعضية لذلك ؛ فأعاد عليه الضمير المفرد ؛ لأنه بعض وإن وقع على كثير .[٤]
والمتأمل فيما ذكره التنوخي من نقول وتحليلات وتعليلات يجد أنّ ذلك يكشف عن سعة علمه واطلاعه وحسن تذوقه .
رابعا : الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وبالعكس :[٥]
ذكر التنوخي أن ذلك إنما يحدث تعظيما للمخبر عنه بالمستقبل ، وحطا بقدر المأمور ، لأن المأمور مستنقص بالأمر . ومثل له بقوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام { إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهِ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}[٦] ولم يقل وأشهدكم تنقيصا لهم

---

[١] - ينظر : الأقصى القريب . ص (٤٥)
[٢] - سورة البقرة . الآية (٨)
[٣] - سورة البقرة . الآية (٢٠٠)
[٤] - ينظر : الأقصى القريب ص (٤٦)
[٥] - ينظر : الأقصى القريب ص (٤٦)
[٦] - سورة هود . الآية (٥٤)

وتعظيما لله، ومثله عكس ذلك وهو قوله تعالى : {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[١]. ولم يقل وليرِ الله تعظيما لله ولرسوله وللمؤمنين.

هذا قول التنوخي ، وهو قول ابن الأثير بعينه ، يقول ابن الأثير : القسم الثاني – يعني من أقسام الالتفات – في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر .. وإنما يقصد إليه تعظيما لحال من أُجْرِيَ عليه الفعل المستقبل ، وتفخيما لأمره وبالضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر[٢]. ثم مثل بقوله تعالى : {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} .
وإني أرى في الآية شاهدا للالتفات من التكلم في (أشهدُ الله) إلى الخطاب في قوله (واشهدوا)
وقد عده البلاغيون من صور إخراج الكلام على خلاف الظاهر وجعله السيد الشريف من قبيل الإستعارة[٣].

<u>خامسا</u> : استعمال الفعل الماضي في موضع الفعل المضارع ؛ و استعمال الفعل المضارع في موضع الفعل الماضي[٤]
أفاد التنوخي أن في استعمال الفعل الماضي في موضع المضارع توكيدا لوقوع الفعل وتحقيقه وإشعارا بتمامه
وصحة وقوعه كقوله تعالى{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٥]
وهذا دليل على قربه من زمن الوقوع،

ومنه قوله تعالى {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}[٦] فيوم تسيير الجبال مستقبل ، والحشر فيه فأتى بلفظ الماضي لتحققه... وأما وضع المضارع في موضع الماضي فلا يخلو عن أن يكون حكاية الحال، وقد يريد المخبر بذلك أن يخيل للسامع الصورة الحالية كأنه يراها كقوله تعالى {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٧] فهذه حكاية الحال الواقعة في الماضي

---

(١) - سورة التوبة . الآية (١٠٥)
(٢) - ينظر: المثل السائر حـ ٢ ص ١٧٩
(٣) - ينظر شروح التلخيص ج٢ ص٥١ ومابعدها وحاشية السيد على المطول ص١٤٩ ومابعدها
(٤) - ينظر : الأقصى القريب ص ٤٧، ٤٨
(٥) - سورة النحل الآية ١
(٦) - سورة الكهف الآية ٤٧
(٧) - سورة آل عمران الآية ١٢١

ومنه قول تأبط شرا:[١]

فإني قد لقيت الغول تهوى ∴ بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت ∴ صريعا لليدين وللجران

فإنه قصد أن يصور لقوله الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم إياها مشاهدة ، للتعجب من جراءته على ذلك الهول ، ولو قال : (فضربتها) عطفا على الأول لزالت هذه الفائدة المذكورة.
وقد استقى التنوخي هذا الموضوع وما أورد فيه من شواهد وأمثلة وتحليلات من ابن الأثير حتى أننا لا نجد فرقا بينهما.[٢]

سادسا: الرجوع من مخاطبة الواحد إلى مخاطبة الاثنين وإلى مخاطبة الجمع، ومن مخاطبة الاثنين إلى مخاطبة الواحد ، وإلى مخاطبة الجمع، ومن مخاطبة الجمع إلى مخاطبة الواحد وإلى مخاطبة الاثنين.[٣]
أشار التنوخي أن هذه ستة أنواع ولا يمكن غيرها ثم مثل لكل واحد منها، وأوضح علةالانتقال وما يفيده ذلك بما يكشف عن حسن فهمه لأسرار التراكيب.

فمثال الأول : قوله تعالى {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ}[٤]. خاطبوا موسى أولا لأنه الأصل في الرسالة ، وهارون وزيره، ثم جمعوا بينهما في الخطاب لاشتراكهما في الرسالة ، وان كان موسى هو الأصل تنبيها على مرتبتيهما.

ومثال الثاني قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء }[٥] مخاطبة للنبي ﷺ، لأنه الرسول وهو الذي يخاطب الناس عن الله ، ثم جمع بينه وبين الأمة لأن الحكم شامل له ولهم.

ومثال الثالث وهو الرجوع من مخاطبة الاثنين إلى مخاطبة الواحد قوله تعالى حكاية عن فرعون {قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى}[٦] لأنهما خاطباه جميعا بالرسالة فأجابهما أولا ثم انتقل إلى موسى علية السلام لأنه صاحب الآيات والمعجزات.

---

(١) - ينظر : كتاب الغاني لأبي الفرج الأصفهاني جـ ١٨ - ٢١٠
(٢) - ينظر : المثل السائر جـ ٢ ص ١٨١
(٣) - ينظر : الأقصى القريب ص ٤٦
(٤) - سورة يونس : الآية ٨٧
(٥) - سورة الطلاق أية ١
(٦) - سورة طه الآية ٤٩

ومثال الرابع والخامس قوله تعالى {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}[١] خاطب تعالى موسى وأخاه لأنه أوحى إليهما معا ، وأن التبوء برسالتهما ولهما الحكم في ذلك، ثم جمع بينهما وبين قومهما لأن كل واحد منهم مأمور بأن يجعل بيته قبلة، ثم أفرد موسى عليه السلام بقوله: (وبشر المؤمنين) تنبيها على مرتبته من الرسالة وانه الأصل فيها .

ومثال السادس : قولة تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٢] خاطب فئتي الجن والإنس على سبيل الجمع لتعجيز كل فرد منها ثم عقبة بقوله تعالى : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) لأن تكذيب واحد من الطائفة منسوب إليها، لأن جميع الطائفة مأمور برده عن التكذيب، ولأن دلك تقرير لكل طائفة . لأن التكذيب في غريزتها وتنبيها على أن التكذيب في الجن أكثر منه في الإنس وأفحش، لأنه ينبغي أن يكون فيهم أقل لبساطة خلقهم والبساطة مظنة العلم ، ولكونهم يرون الإنس من حيث لا يرونهم ، ولكونهم أقدم وجودا من الإنس ، فاللائق بهم الشكر بالتصديق لا التكذيب ، ولذلك قدمهم على الإنس في الذكر.

والحاصل أن هذا الموضع لم يذكره ابن الأثير في الالتفات، بل – فيما أرى – لم يتعرض له في كتابه ومن الراجح أن التنوخي استقاه من صاحب الكشاف إذ يقول في تفسيره لقوله تعالى{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ... الآية} فان قلت كيف نوع الخطاب فثنى أولا ثم وحد آخرا ، قلت خوطب موسى وهارون عليهما السلام أن يتبوأ لقومهما بيوتا ويختاراهما للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء ، ثم سبق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيما لها وللمبشر بها.

كذلك نرى صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} يقول :خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب لأن النبي إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت إظهارا لتقدمه واعتبارا لترؤسه.

وإذا كان التنوخي – كما رأينا – قد استمد هذا الموضع من ابن الأثير والزمخشري فإنه لم يشر إلى أحد منهما من قريب أو بعيد وهدا مما يؤخذ عليه.

---

[١] - سورة يونس : الآية ٨٧

[٢] - سورة الرحمن الآيتان ٣٣ - ٣٤

ثانيا : عكس الظاهر

مما أورده التنوخي عده البلاغيون من مباحث علم المعاني : إرادة نفي الشيء بنفي غير . وقد سماه ابن الأثير : (عكس الظاهر)[١]. إلا أن التنوخي لم يرتض هذه التسمية حيث قال : سمي هذا النوع عكس الظاهر ، وليست تسمية حسنه بل هو مراد الظاهر عليه [٢]. ولا أدري وجها لعدم حسن هذه التسمية عند التنوخي .
و بعقله المنطقي مضي التنوخي في تقسيم هذه الصياغة إلي نفي الشيء بإثبات غيره ، ونفي غيره ، وإثباته بإثبات غيره ، وإثباته بنفي غيره ، والقرينة تدل علي إرادة النفي ، أو إرادة الإثبات[٣]. وأتبع هذا التقسيم بمجموعة من الأمثلة .

فمثال الأول : ما نقل عن علي رضي الله عنه أنه قال في وصف مجلس النبي ﷺ : (لا تثني فلتأته) . أي : لا تذاع ؛ بمعني أنه لا فلتات له فلا تثن ، وقرينة الحال . وهو العلم بعصمته تبين ذلك .
ومن ذلك قول الشاعر :

علي لا حب لا يهتدي بمناره.[٤] ومراده لا منار له فيهتدي به .

ومثال الثاني : وهو نفي الشيء بإثبات غيره قول الشاعر :

أبلغ الحارث بن ظالم المو ∴ عد والمنذر النذور عليا
إنما نقتل النيام

والمراد به أنك لا تقتل غير النيام ، للحصر في إنما ، ثم وكده بتمام البيت وهو قوله
ولا تقتل يقظان ذا سلاح كميًا .
وفي قوله – لا تقتل – نفي يدل علي أنه يقظان ذو سلاح كمي
ومنه قوله تعالى : {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}[٥] ، انتفى بإثبات الأحدية لا أحدية ، وانتفى مساوي لا أحدية وهو الكثيرة .
ومثال الثالث : وهو إثبات الشيء بإثبات غيره قولك – الشمس طالعة فالنهار موجود – الأول ملزوم والثاني لازم .
ومثال الرابع : وهو إثبات الشيء بنفي غيره قولك : الشمس ليست طالعة فالليل موجود ، أو فالنهار غير موجود ، وهو كالثالث في الملازمة ، وهذا مبين في ذكر الشرط والجزاء ، واللازم والملزوم .

---

(١) - ينظر : المثل السائر . جـ٢ ص٢٤٨
(٢) - ينظر : الأقصى القريب ص٤٩
(٣) - ينظر : الأقصى القريب ص٤٨
(٤) - البيت لامرئ القيس . ينظر : شعراء النصرانية جـ ١ ص٤٧ . وتتمة البيت . إذا سافه العَوْد الدّيافي جرجرا. واللاحب : الطريق .سافه : شمه
(٥) - سورة الصمد . الآية (١)

وقد أورد ابن رشيق هذا النوع من الكلام ، وسماه نفي الشيء بإيجابه وقال إنه من محاسن الكلام .[1] ثم استطرد التنوخي بعد هذه الأمثله إلى مسائل نحوية خالصة كإثبات تاء التأنيث مع الفعل وحذفها ، والإتيان بضمير الواحد في موضع الجماعة ، والعكس .[2]

ثالثا : التقديم والتأخير

تكلم التنوخي عن تقديم أجزاء الجملة بعضها على بعض والغرض من التقديم ، وبسط القول بما يكشف عن إلمامه بعلوم العربية نحوية وبيانية ، حيث أفاد أن تقديم ما من شأنه أن يؤخر وتأخير ما من شأنه أن يقدم منه ما يلزم ، ومنه ما يجوز ، فأما ما يلزم فلا مدخل له في البيان إذ لا يمكن غيره ، وما يجوز فلا يقدم عليه دون غيره إلا لغرض من أغراض البيان ، وإن جاء شيء منه لغير غرض كان قبيحا ، ولا يقع إلا شاذاً .[3]

ثم ذكر ما يجوز تقديمه من أجزاء الجملة والغرض من التقديم . من ذلك :

تقديم المفعول تارة على الفاعل ، وتارة على الفعل والفاعل ، فمن الأول قوله تعالى : {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ }[4]. قدم المفعول هنا للإهتمام بمجرد العذاب الواقع بالمعذبين لا الصيحة ؛ فإن العذاب يقع بالصيحة وبغيرها ، ولا يلزم العذاب بالصيحة .

الثانى : كقوله تعالى : {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[5]. وقدم ها هنا تعظيما للمعبود دون العبادة ، وإشعاراً بحصر العبادة منهم له ، ولو قال : نعبدك ونستعينك لم يفد ذاك .

ومن التقديم : تقدم الخبر على المبتدأ ، ويكون ذلك عند الاهتمام به كقوله تعالى : {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}[6] إذا كان الوقوف على لا ريب .

ومنه تقديم خبر كان على اسمها كقوله تعالى : { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}[7] . وقدم للاهتمام به ، ووجه الاهتمام الالتزام به امتنانا على المؤمنين وتأمينا لهم وتشجيعا

ومنه تقديم الظرف على عامله كقوله تعالى : {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ }[8]

---

[1] - ينظر : العمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ٨٠

[2] - ينظر : الأقصى القريب في علم البيان ص ٥٠- ٥٢

[3] - المرجع السابق ص ٥٣

[4] - سورة هود . الآية (٦٧)

[5] - سورة الفاتحة . الآية (٥)

[6] - سورة البقرة . الآية (٢)

[7] - سورة الروم . الآية (٤٧)

[8] - سورة الزمر . الآية (٦٠)

ومنه تقديم الحال على صاحبها كقوله تعالى : {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ *خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ }[١]. والتقدم لتعظيم خشوع الأبصار .
والظاهر أن التنوخي قد استفاد من ابن الأثير في هذا الباب[٢] ، إذا لم نجد عظيم فرق بينهما حتى الأمثلة الواردة عند كل منهما . إلا أن التنوخي يظهر على أسلوبه ثقافته المنطقية . المتمثلة في تقسيماته وحصره للأقسام .

كما نراه يعرض للتقديم والتأخير في الاستفهام، فأوضح أن المستفهم عنه هو المقدم، فإن كان الشك في الفعل قدم علي الفاعل، وإن كان الشك في الفاعل قدم علي الفعل . وإن كان الشك في متعلق الفعل قدم علي الفعل والفاعل، وأن الاستفهام قد يكون علي سبيل التقرير، وقد يكون علي سبيل الإنكار. ثم مثل لكل وبين وجه التقرير أو الإنكار.

فمثال الاستفهام عن الفاعل علي سبيل التقرير قوله تعالي حكاية عن قول قوم نمرود : {قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ} [٣] . فإنه كان سؤالهم عن الفاعل ، فقدموه لأن الفعل كان واقعا محسوسا ، وكان الجزم أو الراجح أنه الفاعل ، فكان سؤالهم له علي سبيل التقرير لا علي سبيل الاستعلام .

ومثال الاستفهام عن الفاعل علي سبيل الإنكار قوله تعالي : { قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}[٤] قدم صاحب الحال لأنه المنكر أن يصبح منه هذا الفعل لعظم الفاعل .
وقوله تعالي : { أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ }[٥] الفاعل ماض وهو معن لا ينبغي له هذا الفاعل لعظم الفعل .

ومثال الاستفهام عن الفعل علي سبيل الإنكار قوله تعالي حكاية عن قول موسى عليه السلام للخضر عليه السلام : { قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا}[٦] تعظيما للفعل لمَّا يترتب عليه من العقاب .
ومما جاء من ذلك وقد حقر فيه الفعل عن بلوغ تلك الدرجة قوله تعالي حكاية عن قول فرعون : {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى} [٧] فإنه صغر مجيء موسي عليه السلام عن أن يبلغ إخراجهم من أرضهم .

---

[١] - سورة المعارج . الآيتان (٤٣ ، ٤٤)
[٢] - ينظر : المثل السائر . جـ ٢ ص ٢١٠ وما بعدها
[٣] - سورة : الأنبياء . الآية (٦٢)
[٤] - سورة : يونس . الآية (٥٩)
[٥] - سورة : المائدة . الآية (١١٦)
[٦] سورة : الكهف . الآية (٧٤)
[٧] - سورة : طه . الآية (٥٧)

هذا . وإذا تأملنا ما ذكره الشيخ عبد القاهر في هذا الباب نجد أن التنوخي قد تأثر به ، إذ يمكن أن نقول : إن ما ذكره هنا بمثابة تلخيص لكلام عبد القاهر .[١]

ثم أتبع التنوخي كلامه عن التقديم بالكلام عن الاعتراض ، والإيجاز ، والاستئناف والإطناب، والكناية و التعريض[٢]، ثم عاد إلي الكلام عن التقديم والتأخير لمرجح معنوي لا تعلق له بالنحو كالأول .

وقد أفاد أن المعاني المرجحات للتقدم كثيرة يعسر حصرها، وفي ذكر بعضها ما يدل علي ما لم يذكر كالأشراف والأعظم والأقدم في الزمان والأكثر والراجح في شيء ما.. وقد يكون في المؤخر ترجيح ما، ويقدم عليه رعاية لترجيح أخر، إما من غرض المتكلم أو لكون المظنة أولي به.

فمما قدم للشرف ما جاء في قوله تعالي : {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} [٣] فإن قيل : إن في الأرض من هو أشرف ممن في السماء قلنا : ذلك قليل ، وأهل السماء كلهم أشراف ، وليس فيهم أرذال كالعصاة الذين هم أكثر أهل الأرض .

ومما قدم للعظم ما جاء في قوله تعالي : {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [٤] لمَّا فضلَّهم علي الناس في العظم قدم الأعظم منهما .

وقد قدم الأرض في قوله تعالي {تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى}[٥]. لتقدم خلق الأرض علي خلق السموات في الزمان .

ومما قدم لكون خلقه أعجب وأدل علي القدرة ما جاء في قوله تعالي : {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٦]. لأن المشي بلا آلة أدل علي القدرة من المشي بآلة، والمشي بالآلة القليلة أدل علي القدرة من المشي بالآلة الكثيرة.

ومما قدم لتقدمه بالطبع ما جاء في قوله تعالي { مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ }[٧] في صفة النساء والأجنحة.

---

[١] ينظر : دلائل الإعجاز د/ خفجي . ص ١٤٦ _ ١٦١

[٢] - ينظر : الأقصى القريب ص ٥٨ - ٨٠

[٣] - سورة : الرعد . الآية (١٥)

[٤] - سورة غافر : الآية (٥٧)

[٥] - سورة : طه . الآية (٤)

[٦] - سورة النور . الآية (٤٥)

[٧] - سورة النساء . الآية (٣). وفاطر . الآية (١)

ومما قدم وفي المتأخر تقديمه ما جاء في قوله تعالى{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[١] أخر الإنس وهم أشرف من الجن، وقدم الجن لمعان.
أحدهما: أنهم أقدم في الخلق، والثاني: أن خلقهم أعجب للطف أجسامهم عن الإدراك بأبصارنا، والثالث : كونهم أحق بالتعنيف لأنهم أكثر عصيانا من الإنس، ودليل التعنيف قوله تعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}وذلك يدل بالمفهوم على عصيانهم والتعنيف عليهم؛ ومما يؤكد ذلك قوله تعالى {مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ}[٢]وقدم الرزق على الإطعام لكونه أعم منه[٣].

وقد استقى التنوخي هذا الموضع من السهيلي وابن الأثير[٤]. يقول السهيلي :" مسألة في أنَّ "الواو" لا تدل على الترتيب ولا على التعقيب تقول: صمت رمضان وشعبان، وإن شئت شعبان ورمضان، بخلاف الفاء وثم إلا أنهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم، وهو ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم. هذا لفظ سيبويه،وهو كلام مجمل يحتاج إلى بسط وتبيين، فيقال: متى يكون أحد الشيئين أحق بالتقديم، ويكون المتكلم ببيانه أعني؟
والجواب: أن هذا أصل يجب الاعتناء به، لعظم منفعته في كتاب الله تعالى، وحديث رسولهﷺ إذ لا بد من الوقوف على الحكمة في تقديم ما قدم في القرآن، وتأخير ما أخر، كنحو :" السمع والبصر" ، " الظلمات والنور" " والليل والنهار" ، " والجن والإنس" .... إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة"[٥]

وخلاص القول: هو أن التنوخي له جهد ملموس في هذا الباب؛ وإذا كان تأثره بالسابقين عليه يبدو واضحا فإن هذا لا يقلل من جهده، إذ نرى له أسلوبا خاصا، وفكراً متميزاً.

رابعاً: الاعتراض[٦]

من المعروف أن الاعتراض لون من الإطناب عند البلاغيين إلا أن التنوخي أفرده بالذكر مستقلا عن الإطناب متأثرا في ذلك بابن الأثير. ويبدو أنه متأثر به أيضا في

---

[١] - سورة الذاريات الآية (٤٦)
[٢] - سورة الذاريات الآية (٤٧)
[٣] - ينظر : الأقصى القريب ص (٨١ ، ٨٢)
[٤] - ينظر : المثل السائر جـ ٢ ص (٢٢٣ ــ ٢٢٧)
[٥] - ينظر : نتائج الفكر للسهيلي . دار الكتب العلمية ص ٢٠٨،٢٠٩
[٦] - ينظر : الأقصى القريب ص (٥٨ ــ ٦٠)

كل ما ذكره عن الاعتراض[١].

فقد حده، وقسمه إلى ما يجوز وما لا يجوز وخص معرفة ما لا يجوز منه بعلم النحو وقسم ما يجوز إلى ما منه ما يحسن، ومنه ما يقبح، ومنه لا حسن فيه ولا قبح. ثم ساق لكل ذلك من أمثلة ما يوضحه كاشفا عن فائدته.

والناظر في هذا الموضوع عند ابن الأثير يجد أن هذا هو ما سلكه ابن الأثير بعينه مع اختلاف قليل في الصياغة والأمثلة.

فعن حد الاعتراض وأقسامه يقول التنوخي: هو الفصل بكلمة أو أكثر مفيداً لمعنى يحسن السكوت عليه أوّ لاً بين ما من شأنه الاتصال في الكلام، وهذا منه ما يجوز، ومنه ما لا يجوز وليتسلم ذلك من علم النحو، وما يجوز من ذلك منه ما يحسن، ومنه ما يقبح، ومنه ما لا حسن فيه ولا قبح.

ثم أخذ يفصل القول في ذلك فقال: فالذي يحسن من ذلك ما يكون توكيدا لمعنى الكلام أو تنبيها على معنى زائد يحسن الكلام به، ويبلغ من سامعه المبلغ الذي لا يبلغه الكلام بدونه، فمن ذلك قوله تعالى {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}[٢] اعترض بين القسم وجوابه بقوله: { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} واعترض بين القسم وصفته بقوله: { لَوْ تَعْلَمُونَ} إعلاما لهم بأن لهذا المقسم به عظمة لا يعلمونها، وإن جل ما يعلمون من عظمته، وهذا ما يتبادر على الأذهان إعجازه ويعظم عندها محله.

ومن بديع الاعتراض قول الشاعر عوف بن محلم لعبد الله بن طاهر:

إن الثمانين – وبلغتها- ∴ قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ومثل هذا قد سمي حشواً لأن قوله:" وبلغتها" اعترض بها بين اسم إن وخبرها، ولا علاقة بينها وبينهما إلا أنها دعاء للمدوح فقط.

وقد أشار ابن الأثير إلى هذه التسمية في مستهل حديثه عن الاعتراض فقال: "وبعضهم يسميه بالحشو "[٣]

إلا أن الخطيب القزويني خص الحشو باللفظ الزائد لغير فائدة وجعله من طرق التعبير غير المقبولة.[٤]

وأما الاعتراض الذي هو قبيح وليس من البيان في شيء، وإنما ذكر في البيان ليجتنب، وأكثر وقوعه لإقامة الوزن للشعر، وإن جاء منه ما ليس لإقامة الوزن

---

[١] - ينظر : المثل السائر جـ ٣ ص ٤٠ - ٤٨

[٢] - سورة الواقعة . الآيات (٧٥ -٧٧)

[٣] - ينظر : المثل السائر جـ ٣ ص ٤٠

[٤] - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح . شرح الشيخ عبد المتعال جـ ٢ ص ١١٢

فيكون لسوء خيال المؤلف ونقص فهمه، فيقبح هذا النوع على مؤلفه. ومنه قول الشاعر:

نظرت كأني من وراء زجاجة ∴ إلى الدار من فرْط الصبابة أنظر

اعترض بين الفعل ومعمولة- نظرت، وإلى الدار- واعترض بين كان واسمها وبين خبرها بقوله إلى الدار، ولو كان الكلام: نظرت إلى الدار كأني أنظر من وراء زجاجة لكان النظم المقصود والآبين، وإنما اضطره إلى التقديم والتأخير الحاجة إلى الوزن مع أن ديباجته في غاية الحسن مع التشبيه البديع.

وأما الاعتراض الذي لا حسن فيه ولا قبح كقول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ∴ ثمانين حولا- لا أبا لك يسأم

فقوله لا أبا لك اعتراض بين فعل الشرط وجوابه.

وإذا كان التنوخي عد الاعتراض في هذا البيت مما لا حسن فيه ولا قبح وفقا لما ذهب غليه ابن الأثير[١]. فإنه له تعقيب على هذا البيت يدل على حسن نقده وسعة اطلاعه حيث يقول: فقوله – لا أبا لك – اعتراض، وهذا القسم مذكور في كتب البيان، فلم أهمله إتباعا لناقله، غير أنه عندي مما يقل حسنه أو يقل قبحه، ولا بد من حسن ما، أو قبح ما؛ فإن قول زهير - لا أبا لك – إما أن يخاطب بها نفسه، أو غيره؛ فإن كان الخطاب لنفسه فهو توكيد للخبر، لأنه يخاطب نفسه لمحبته الحياة مع علمه بالتعب وهو حسن، وإن كان الخطاب لغيره فهو مما لا حاجة له إليه، وقد أساء أدبه على مخاطبه فلا يخلو حينئذ من قبح.[٢]

خامسا: الإيجاز[٣]

استهل التنوخي كلامه عن الإيجاز بتعريفه. وألمح إلي فضيلته، وما يؤثر فيه الإيجاز على الإطناب، كما جعل المساواة من الإيجاز، وهو في ذلك يتابع ابن الأثير[٤]، فإنه لم يجعل بين الإيجاز والإطناب حداً متوسطاً، وأخيراً عرض لصور إيجاز الحذف المختلفة ممثلا لكل منها.

فعن حد الإيجاز يقول التنوخي: الإيجاز هو الاقتصار من اللفظ الدال على المعنى على ما هو أقل من الجاري في مخاطبات الناس غالبا، وهو ضد الإسهاب الذي هو زائد على الجاري في مخاطبات الناس غالبا.

---

(١) - ينظر: المثل السائر جـ ٣ ص ٤٧

(٢) - ينظر: الأقصى القريب ص ٦٠

(٣) - ينظر: الأقصى القريب ص ٦٠- ٦٧.

(٤) - ينظر: المثل السائر جـ٢ ص٣١٩.

أما عن فضيلة الإيجاز فذكر أنه مما يدل على أن واضع الكلام يؤثر الإيجاز في بعض الكلام على التطويل، وضع الألفاظ العامة التي يدل وأحدها على الكثير كاسم الجنس، وكالأسماء الموضوعة للاستفهام والشرط كمن، وما، ومهما، وكالضمائر التي يدل الحرف منها على الاسم المطول والموصوف بأوصاف كثيرة.

وعما يؤثر فيه الإيجاز يقول: وينبغي أن يكون الإيجاز في كل موضع بحسبه كالذي جرت به العادة في الأشعار، وكتب الرسائل إلى من يعتمد على فهمه وبلاغته.

هذا وقد أشار التنوخي إلى أقسام الإيجاز فقال: الوجيز من الكلام منه ما يكون مساويا للمعنى ويسمى التقدير، ومنه ما ينقص عن المعنى، ومنه ما يزيد على المعنى وهذا لا يكون في غاية الإيجاز لكنه وجيز بالنسبة إلى ما هو أطول منه. والذي ينقص لفظه عن معناه، ويسمى القصر وهو أنواع منه ما لا يقام فيه عوض المحذوف غيره، ومنه ما يقام فيه عوض المحذوف غيره.

ويظهر تأثر التنوخي- كما أشرت- بابن الأثير في تقسيمه للإيجاز وإدخال المساواة فيه وتسميتها بالتقدير. وهو مخالف لما عليه جمهور البلاغيين؛ فالمساواة قسم برأسه والإيجاز قسمه البلاغيون إلى إيجاز القصر وهو ما ليس بحذف، وإيجاز الحذف، وهو ما يكون بحذف والمحذوف إما جزء جملة أو أكثر من جملة[1].

وبعد فقد اخترت مجموعة من أمثلة التنوخي للإيجاز يظهر فيها حسن اختياره، وتذوقه للأساليب، وفهمه لأسرار اللغة.

من ذلك ما حذف ولم يعوض عن المحذوف غيره قوله تعالى : {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ}[2] – فقوله: (يوسف أيها الصديق) يستلزم قبله: فأرسلوه، فجاء يوسف، فقال له؛ ولما كانت هذه الجمل معلومة بالضرورة، وقصة يوسف عليه السلام طويلة حذفت منها هذه الجمل المعلومة بالضرورة تخفيفا، وكان حذفها أحسن من الإتيان بها؛ لأن سماعها يشغل عن تأمل ما في القصة مما يحتاج إلى تأمله وهو كثير.

ومن الحذف حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه في الإعراب كقوله تعالى: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ}[3] ومعناه: واسأل أهل القرية، وهو معلوم بالضرورة؛ لأن القرية

---

[1] - ينظر: الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ٢ ص١١٨- ١٢٢.
[2] - سورة يوسف. الآيتان (٤٥- ٤٦).
[3] - سورة يوسف. الآية (٨٢).

نفسها لا تجيب فتسأل، ويجوز أن يقال في هذا أنه من باب المجاز وإطلاق لفظ القرية على جماعة أهلها، ووجه المجاز الاشتراك بين القرية وأهل القرية في صورة الإجماع.

ومنه حذف مضافات بعضها إلى بعض كقوله تعالى : { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ }[1] معناه من تراب أثر حافر فرس الرسول.

ومنه حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه كقوله تعالى: {الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}[2] . أي القوم المتقين، والاهتمام بهذه الصفة وشيوعها أغنى عن ذكر الموصوف ههنا، فلو ذكر في مثل هذا الموضع لكان كالفضلة التي لا حاجة إليها. وقلما تحذف الصفة لأنها لتمييز الموصوف من غيره، أو مدحه أو ذمه، وهذا من باب الإسهاب فلا يحسن فيه الإيجاز..
وربما حذفت لظهور دلالة الكلام عليها، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : [لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد] أي: لا صلاة كاملة.

ومن ذلك حذف الفاعل وإقامة المفعول مقامه كقوله تعالى: { وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا}[3]. اختصاراً وتخفيفاً إذ لو ذكر لم يزد فائدة.
وقد يحذف الفاعل لتعظيمه أو لاحتقاره أو لستره أو للجهل، وأمثلة ذلك قوله تعالى:

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ}[4]. حذف الفاعل تعظيما.
وقوله تعالى: {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} [5]. وحذف الفاعل هنا لاحتقاره.
وقوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[6] فاعل قطع مجهول عند الذين ظلموا، ومعلوم عند الله؛ فهو مستور عن الذين ظلموا، ولو كان المخبر منهم لكان مجهولا عنده، فيتعذر عليه الإتيان به.

ومن ذلك حذف المبتدأ، وحذف الخبر؛ فحذف المبتدأ كقوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ

---

[1] - سورة طه. الآية (٩٦).
[2] - سورة البقرة. الآيتان (١- ٢).
[3] - سورة الإسراء. الآية (٣٣).
[4] - سورة الزخرف. الآية (٥٧).
[5] - سورة الشعراء. الآيتان (٣٩- ٤٠).
[6] - سورة الأنعام. الآية (٤٥).

كَثبُهُمْ}(١) معناه: هم ثلاثة، وهم خمسة، وهم سبعة، وحذف ذلك تخفيفا؛ لأن الإتيان به لا يزيد معنى. وحذف الخبر كقوله تعالى: { لوْلا أنتُمْ لكُنّا مُؤْمِنِينَ}(٢). والتقدير لولا أنتم صددتمونا.

هذا وقد مثل التنوخي لحذف الفعل، وحذف المفعول، وحذف القسم وجوابه، وحذف الشرط وجوابه، وحذف المسبب والاكتفاء بالسبب، وحذف السبب والاكتفاء بالمسبب وعقب على كل ما مثل به ببيان الغرض من الحذف.

وأخيرا ختم باب الإيجاز بالكلام عن حذف مفعول المشيئة والإرادة، وأشار إلى أنه مما يكثر فيه الحذف، وساق له مجموعة من الأمثلة وعقب عليها(٣).
ومن ذلك قوله تعالى: {ولَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا }(٤). المحذوف هنا مفعول المشيئة وهو إيتاء كل نفس هداها وتفسيره: لآتينا، وإنما كثر حذف مفعول المشيئة بعد " لو" وتفسيره في جوابها؛ لأن مادة المشيئة والشيء واحدة، فكأنَّ المشيئة جعل ما ليس بشيء شيئا، فمفعول المشيئة على هذا لا يتأخر عنها، وهو بعد لو منفي لانتفائه في الجواب، فيكون انتفاء المشيئة لازما لانتفائه، فانتفاؤه بالوضع، وانتفاء المشيئة باللازم،فحذف مفعول المشيئة لينصرف الانتفاء إلى المشيئة، فيكون انتفاء مفعولها تابعا لها(٥).
ويظهر من كلام التنوخي تأثره بالفكر الفلسفي المنطقي المبني على التعليلات واستنباط النتائج.

ومن أمثلة حذف مفعول الإرادة قوله تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ}(٦) حذف مفعول الإرادة ههنا لأن في الآية التي قبلها ما يدل على أنهم افتروا الكذب، وهو بزعمهم إطفاء نور الله، فلو ذكر آنفا لكان كالمكرر فحذف، وفسر بقوله: {لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ } وكان في الحذف تنبيه على هذا المعنى الغريب.

وإذا كان حذف المفعول أكثر مع شاء وأراد، إلا أنهم لا يحذفونه في الشيء المستغرب كقوله تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}(٧).

---
(١) - سورة الكهف. الآية(٢٢).
(٢) - سورة سبأ. الآية (٣١).
(٣) - ينظر: الأقصى القريب ص٦٧.
(٤) - سورة السجدة. الآية (١٣).
(٥) - ينظر: الأقصى القريب ص٦٧.
(٦) - سورة الصف. الآية (٨).
(٧) - سورة الزمر. الآية (٤).

ومنه قول الشاعر[١]:

ولو شئت أن أبي دماً لبكيته ∴ عليه ولكن ساحة الصبر أوسع[٢]

أما الإتيان بالمفعول في الآية لأنه لو حذفه فقال: لو أراد الله لاصطفى، لم يظهر المعنى المراد، لأن الاصطفاء قد لا يكون بمعنى التبني، ولو قال: لو أراد الله لاتخذ ولداً لم يكن فيه ما في إظهاره من تعظيم جُرم قائله.

أما الإتيان بالمفعول في بيت الشعر فلأنه لزمه من إقامة الوزن الضمير، والضمير لابد أن يعود على مذكور، ولأن في إظهاره أيضا تعظيما لبكاء الدم.

وإذا ما قارنا بين ما ذكره التنوخي، وما جاء عند ابن الأثير في هذا الباب[٣] نجد تأثر التنوخي به واضحا في كل ما أورده.

سادسا: الاستئناف[٤]

ذكر التنوخي أن الاستئناف هو الإتيان بعد تمام كلام بقول يفهم منه جواب سؤال مقدر، وأن منه ما يكون بإعادة اسم أو صفة كقولك: أكرم زيداً فزيدٌ أهل الإكرام، أو أكرم زيداً صديقك الصدوق، كأنه توهم قائلا يقول له: لِمَ يكرم زيد؟. فكان استئنافه هو الجواب لذلك.

ومنه قوله تعالى: {تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى*الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[٥]. وقوله تعالى: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[٦].

فالاستئناف هنا هو قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، وقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}.

وقوله تعالى: {لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[٧]. يدفع وصفه تعالى باللطف والخبرة توهُّم من يستبعد مدركا للبصر، ولا يدركه البصر.

كما أشار إلى أن من الاستئناف ما يكون بما ليس فيه إعادة اسم ولا صفة كقوله تعالى: {قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ

---

[١] - هو الخريمي، واسمه إسحاق بن حسان، ويكنى أبا يعقوب، وهو من العجم، وكان مولى ابن خريم، لاذي يقال لأبيه: (خريم الناعم).

[٢] - ينظر: ديوان المعاني جـ٢ ص١٧٥.

[٣] - ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. لضياء الدين بن الأثير جـ٢ ص٢٦٨- ٢٩٨.

[٤] - ينظر: الأقصى القريب ص٦٨.

[٥] - سورة طه. الآية (٤- ٥).

[٦] - سورة طه. الآية (٧- ٨).

[٧] - سورة الأنعام. الآية (١٠٣).

إن كَـانُوا يَنطِقُـونَ}[1]. ثـم الجـواب بقولـه" بـل فعلـه كبيـرهم هـذا" ، واسـتأنف: " فاسألوهم إن كانوا ينطقون"، تنبيها على أن جوابه تهكما بهم، وليس على حقيقته، وأن من لا ينطق كيف يفعل هذا، بل كيف يكون إلها.

والمتأمل فيما ذكره التنوخي يجد أنه قد استقى ما ذكره من ابن الأثير[2]، ولا يكاد يجد بينهما اختلافا يذكر، فالأقسام التي ذكرها التنوخي للاستئناف هي نفس الأقسام التي ذكرها ابن الأثير، والأمثلة التي استهل بها التنوخي كلامه عن الاستئناف هي نفسها التي استهل بها ابن الأثير كلامه عنه.

إلا أن التنوخي قد عرف الاستئناف، وهو ما لم يفعله ابن الأثير، ثم إن ابن الأثير درس الاستئناف على أنه لون من ألوان حذف الجمل. وقد خالفه في ذلك التنوخي حيث قال: ولا ينبغي أن هذا يُعَدُّ من الحذف؛ لأن المتكلم ما حذف من كلامه شيئا، وإنما السؤال لم يقع فكان هذا الجواب لو وقع.

وكأني بالتنوخي يريد بالاستئناف الفصل مع السؤال المقدر، وعليه نحس هنا انفصاله عن كل دراسات مدرسة عبد القاهر، إذ لم يلفته من الفصل إلا هذه الصورة[3].

سابعا: الإطناب[4]

عرف التنوخي الإطناب بأنه الإطالة في الكلام لرفع ما يتوهم في الكلام الوجيز من لبس أو لتعظيم المذكور وتهويل أمره عند السامع.

وهو بذلك يحدد الغرض من الإطناب، ويميزه من كثرة الكلام التي لا بلاغة فيها.

ثم مثل له بما يفيد هذين الغرضين. فقال: ومما جاء لرفع اللبس قوله تعالى: { فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ }[5].

فقوله" تلك عشرة" مع أن الثلاثة والسبعة معلوم أنها عشرة رفعُ لتوهم أنها ثلاثة في الحج أو سبعة في الرجوع لاحتمال الترديد.

وقوله: " كاملة" مع أن العشرة لو نقصت لم تكن عشرة، فائدته أن التفريق ما نقص أجرها؛ بل أجرها كامل كما لو كانت متوالية، فنسب الكمال إليها لكمال أجرها.

ومثله قوله تعالى: {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ }[6]، وقوله تعالى:

---

[1] - سورة الأنبياء. الآية (٦٢- ٦٣).
[2] - ينظر: المثل السائر جـ٢ ص٢٦٩.
[3] - ينظر: البلاغة تطور وتاريخ ص٣١٨.
[4] - ينظر: الأقصى القريب ص٧٠.
[5] - سورة البقرة. الآية (١٩٦).
[6] - سورة الأحزاب. الآية (٤).

{ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }[١]، لأن القلب حقيقة هو البضعة من اللحم المعروفة، ويطلق القلب على الفهم والإدراك الذي هو بالقلب، فرفع التثنية عن البضعة التي في الجوف لا عن الفهم، فإنه يتعدد بحسب المفهومات، وكذلك العمى الذي هو وصف الجارحة التي هي العين أطلق أيضا على البضعة التي في الصدر لمشاركتها العين في أنها عضو، ولم يطلق على الفهم الذي هو معنى.

وأما ما جاء لتعظيم الأمر وكونه مهولا فكقوله تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ......إلى قوله: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ}[٢]. إذ يكفي في الدلالة على وقت، علم النفس ما أحضرت قوله تعالى: " إذا الشمس كورت". أو غيره من الاثنتي عشرة المذكورة، فعددها لعظم ذلك اليوم وهوله.

ومن الملاحظ أن نظرة التنوخي للإطناب تعد نظرة خاصة، حيث إنه لم يذكر له أنواعا مثل ما فعل صاحب المفتاح[٣]، ولا أقساما مثل ما فعل ابن الأثير[٤] بلي حبسه على غرضين فقط هما رفع ما يتوهم من لبس، أو للتعظيم والتهويل. في حين أن للإطناب صورا كثيرة ولكل صورة أغراض عدة تفهم من سياق الكلام، ذكرها الخطيب القزويني في الإيضاح كالإيضاح بعد الإبهام، والتوشيع، وذكر الخاص بعد العام... ثم في نهاية الأنواع التي أوردها قال: وإما بغير ذلك ثم ساق أمثلة منها ما مثل به التنوخي هنا وهو قوله تعالى: " تلك عشرة كاملة"[٥]. مما يجعلنا نرجح تأثر التنوخي بابن الأثير في جعل هذه الأنواع مستقلة عن الإطناب خلافا لما عليه الخطيب ومن لف لفه.

ثامنا: توكيد الضمير المتصل بالمنفصل وعدم توكيده[٦]

ألمَّ التنوخي بهذا الموضوع من فصل كتبه ابن الأثير عن توكيد الضمير وعدم توكيده[٧]. ولم يشر إليه.
وقد بدأ التنوخي كلامه ببيان دواعي التوكيد وعدمه فقال: أما توكيده به- يعني توكيد المتصل بالمنفصل- فلتحقيق الأمر وتبينه إذا احتمل الكلام لبسا ما. وأما عدم توكيده

---

(١) - سورة الحج. الآية (٤٦).
(٢) - سورة التكوير. الآيات (١- ١٤).
(٣) - ينظر: مفتاح العلوم ص ١٥٨- ١٦٠.
(٤) - ينظر: المثل السائر جـ٢ ص٣٤٦.
(٥) - ينظر: الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ٢ ص١٥٢.
(٦) - ينظر: الأقصى القريب.ص ٧٠- ٧١.
(٧) - ينظر: المثل السائر جـ٢ ص١٨٩.

فعند عدم اللبس في ذلك الأمر، أو ارتفاع اللبس من الكلام بأمور أخر، فلو وكد حينئذ كان إطالة فقط.
ثم ساق مجموعة من الأمثلة وعقب عليها بما يوضحها،منها قوله تعالى: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى}[١]. لما كان الإضحاك والإبكاء مما يتعاطاه البشر وتؤثره أفعالهم وكد ضميره سبحانه وتعالى تقريراً، لأن كل فعل هو له حقيقة، ولغيره مجازاً وكذلك الإحياء والإماتة ربما ادّعاها بعض البشر كنمرود في قوله أنا أحي وأميت، بخلاف خلق الزوجين الذكر والأنثى، فإنه لا يدعيه أحد، لأن الحسّ يكذبه، والبديهة تقضي بأنه ليس إلا للإله.
ومن عدم الضمير لاستغناء الكلام عنه قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٢]. لم تؤكد الكاف في قوله تعالي: " إنك على كل شيء قدير " لما سبق من الأمور التي وصف تبارك وتعالى بها التي لم تبق حاجة إلى التوكيد.

ومن أعظم ما عقب به مما يدل على حسن تذوقه وسعة علمه ما ذكره في سبب توكيد الضمير في قوله تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[٣].
يقول التنوخي: لما أتى موسى عليه السلام النار ولم يعلم حقيقتها قيل له: " أنا ربك" تحقيقا لأن المكلم هو الرب لا النار ولا غيرها مما ليس ربًّا، ثم قال: " وأنا اخترتك" عطفا على " أنا" قبله ولم يكرر- إني- استغناء بالأولة، ثم قال" فاستمع لما يوحى" فذكر الوحي الذي هو من أمر النبوة التي يحتاج صاحبها إلى التحقيق والقطع بأنه كذلك، ثم قال بعد ذلك " إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني " أتى بنون الوقاية توكيداً لتحقيق (إنَّ) وأتى بالضميرين توكيداً ، لأن المنادى الله ، وأن المراد بالرب المذكور قبله الله لا ما يحتمل لفظ الرب مما سوى الله ، ثم وكد ذلك بقوله : " لا إله إلا أنا ، فأذهب هذا التوهم من كل وجه ، ثم قال بعد ذلك (فاعبدني) إذ لا يستحق العبادة غيره ، ثم قال : وأقم الصلاة لذكرى) شرعا للصلاة التي هي من فروع التوحيد ،

فالتوكيد في هذه الكلمات من ستة أوجه : أحدها (إن) للتحقيق ، وثانيها : وقايتها بالنون لتحقيقها ، وثالثها توكيد اسمها بالضمير المنفصل وهو قوله (أنا) الذي هو

---

[١] - سورة النجم. الآيات (٤٢- ٤٥).
[٢] - سورة آل عمران. الآية (٢٦).
[٣] - سورة طه. الآيات (١١- ١٤).

أحق عبارات المتكلم به ، ورابعها قوله : (لا إله إلا أنا) لتحقيق معنى الإلهية والوحدانية ، وخامسها قوله (فاعبدني) إذ لا يستحق العبادة غيره ، وسادسها قوله (وأقم الصلاة لذكرى) توكيداً لنبوة موسى عليه السلام بأن شرع له[١] .
فإذا كان التنوخي قد ألم بهذا الفصل – كما أشرت – من ابن الأثير إلا أنه تميز منه بتحليلاته وتعليلاته لما أورده من أمثلة .

تاسعا : الإتيان بالمظهر دون المضمر[٢]

أشار التنوخي إلى أن الإتيان بالمظهر دون المضمر يكون لبيان عظيم أمر مَّا كالجودة والرداءة والشرف والخسة وغير ذلك .
ثم ساق لذلك من الشواهد ما يوضحه ، من ذلك ما جاء في قوله تعالى : {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ}[٣] . قال : (إن إبراهيم) ولم يقل " إنه " لشرف إبراهيم عليه السلام والزيادة في تشريفه بما نسب إليه .
وأما ما جاء منه للذم فنحو قوله تعالى : {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ}[٤]. قال الله تعالى : " فإن الله عدو للكافرين " ، ولم يقل : " له " ، وقد سبق ذكرهم في (مَنْ) المبهم ، واسم كان المضمر فيها ذمّاً لهم بالكفر وتبيناً أ، عدو الله وملائكته ورسله لا يكون إلا كافراً ، وفي هذه الآية إظهار اسم الله لعظمه تعالى وهو قوله تعالى " فإن الله عدو للكافرين " بعد ضميره في ملائكته ورسله .
وقد أورد صاحب المفتاح هذا الموضع ضمن وضع المظهر موضع المضمر .[٥]

عاشرا : الأمر بضد المطلوب تهديداً واستهانة به[٦]

مثل التنوخي لهذا اللون بقوله تعالى { قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[٧] وقوله تعالى {وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ }[٨] .

---

[١] - ينظر : الأقصى القريب ز ص (٧١)
[٢] - ينظر : الأقصى القريب ص (٨٢)
[٣] - سورة هود . الآيتان (٧٤ ، ٧٥)
[٤] - سورة البقرة . الآية (٩٨)
[٥] - ينظر : مفتاح العلوم للسكاكي ص (١١١)
[٦] - ينظر : الأقصى القريب ص (٨٧)
[٧] - سورة الزمر الآية ٨
[٨] - سورة هود الآيتان ١٢١ ، ١٢٢

ففي الآية الأولى تهديد بالنار، وفي الثانية أبهم التهديد، وهو أشد موقعا من التصريح، إذ لا يحاط بجميع أنواع العذاب وتفاصيله.
ومن ذلك ما جاء للتعجيز كقوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }[1] قوله تعالى (إن زعمتم)، وقد زعموا، معناه – إن كنتم صادقين- وأمرهم بتمني الموت، وأخبر أنهم لا يتمنونه، وإذا كان كذلك فهم عاجزون عن الإتيان بما أمرهم به.
وقد يكون الأمر إخبارا بأن لا حرج على فاعل المأمور به كقول النبي ﷺ لعمر ﷺ: ((وما يدريك لعل الله اطلّع على أهل بدر فقال لهم : يا أهل بدر اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم أو كما قال))[2]
وقد يكون إخبار بأن لا فائدة في فعل المأمور به كقوله تعالى {اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ }[3] .

وبالتأمل فيما ساقه التنوخي من أمثلة للأمر، وما ذكره لكل مثال منها أغراض نجد أنها من صميم المعاني المجازية التي يخرج إليها الأمر عند البلاغيين[4].
ولم أقف على شيء من باب الإنشاء وضروبه والمعاني المجازية التي تخرج لها الأساليب الإنشائية عند التنوخي إلا هذا اللون الذي سماه " الأمر بضد المطلوب تهديدا للمأمور واستهانة به" . وقد ذكر أن بعض الناس سماه : "خذلان المخاطب" ولم أقف على من سماه هذا التسمية.

الحادي عشر: مراعاة الحروف ومعانيها ومواقع اللبس فيها واشتباه بعضها ببعض[5]

يقول ابن الأثير عن هذا اللون: هذا موضع لطيف المأخذ، دقيق المغزى[6].
ولهذا نرى التنوخي يستهل كلامه عنه ببيان منزلته، ويكشف عن دقة مسلكه، وما يعين على مداركه ، فيقول: هذا مما يحتاج إلى الطباع السليمة، والتدرُّب في معاني الشعر والخطب وما جاء من كلام العرب في مكاتباتهم إلى غير ذلك مما استعملوه. ومن أعظم الأعوان على ذلك النظر في القرآن العزيز وتفسيره، وتأمل معانيه.

---

(١) - سورة الجمعة الآيتان ٦، ٧
(٢) - حديث متفق عليه واللفظ للبخاري
(٣) - سورة الطور الآية ١٦
(٤) - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ ٢ ص ٥٣
(٥) - ينظر : الأقصى القريب ص ٨٨، ٨٩
(٦) - ينظر : المثل السائر جـ ٢ ص ٢٢٧

ثم يوقفنا على ما بين حروف العطف وما بين حروف الجر من فروق دقيقة، لا يدركها إلا أصحاب الطباع السليمة فيقول: انظر إلى حروف العطف في قوله تعالى { كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ }[1] لما زجر بكلا وأخبر أن المرء لم يقض ما أمر به، عقب الزجر بالأمر فأتى بالفاء مستأنفا للجملة الأخرى، وتعقيبا للزجر بالأمر وتنبيها على أن غفلة الإنسان مما ينبغي له سبب لأن يوعظ؛ فالفاء ههنا دلت على الاستئناف والتعقيب والتسبب، وعطف شق الأرض على صب الماء بثم إذ لا بد بينهما من مهلة، وقال " فأنبتنا" إذ انشقاق الأرض بالنبات فلا مهلة بينهما، ثم عطف النبات بعضه على بعض بالواو لأن فيه ما ينبت بعضه مع بعض، وما ينبت بعضه عقب بعض ، وما يتقدم بعضه على بعض ، ويتأخر من غير تعقيب، والواو تستعمل في هذه المواضع كلها؛ إذ هي لمجرّد الاشتراك، ثم قال : { فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ } وليس وقت مجيئها عقيب ما قبلها، فهي لتعقيب الوعظ بعضه ببعض إذ هو من توابع الزجر،وليس في هذا العطف تعرض لتوالي الأوقات.

ثم قال { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ }فعطف بالواو لأنه يفر من المفرور منه إذا لقيه، ولقاؤه لهم قد يكون في وقت واحد، وقد يكون في أوقات مختلفة، والواو هي الجامعة لذلك كله، وقدم الأخ على الأم، والأم على الأب، والأب على الصاحبة، والصاحبة على الأبناء، انتقالا من كل واحد إلى من هو أعز منه، وأشدُّ حفاوة، والأب وإن كان كالأم أو مرجوحا من جهة البر فإنه يرجى نصره أكثر من الأم، والمحافظة على الرجال أشد منها على النساء، وأخر الصاحبة عنه وإن كانت لا يرجى نصرها لزيادة الأنس والمودة التي جعل الله بينهما، وأخر البنين عنها لأنهم الغاية والنتيجة وزيادة حبهم بالطبع على كل أحد.

ثم ينقلنا إلى ما بين حروف الجر من فروق فيقول: وانظر إلى حروف الجر في مثل قوله تعالى { وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }[2] استعمل (على) بالنسبة إلى الهدى ، و (في) بالنسبة إلى الضلال مع أن كل واحد منهما يجوز أن يقال فيه على ، وفي؛ لأن الهدى من الله، والله الهادي والدال على طريق الهدى، فكل من هدى ودل فهو على الهدى، ولا يوصف أحد بأنه فيه إلا لقربه وعلو مرتبته، وهذا لا يكون إلا للآحاد ممن يشاء الله فاستعملت (على) لشمولها، وأما الضلال فيوصف به من ضل عن الهدى ومن لم يهتد بعد، وهو مما ينسب إلى الإنسان على سبيل الأدب

---

[1] - سورة عبس الآيات ٢٣ - ٣٦

[2] - سورة سبأ الآية ٢٤

مع الله، فالضلال محيط بالضال بالطبع حتى يهديه الله، ففي هنا استعملت لأنها أبلغ من على، وأيضا فإن الترديد هاهنا في الظاهر، وأما في نفس الأمر فالمشركون هم في الضلال منغمسون غاية الانغماس فتكون (في) أنسب[١].
وقوله تعالى: { وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ }[٢]. ولم يقل على لأن (على) تقتضي العلو وفي تقتضي الظرفية، والمصلوب بالنسبة إلى أعلا النخلة وأسفلها (في)، وبالنسبة إلى جانبيها (على)، والمصلوب من الممكن أن يُجعل في خشبة فوق النخلة، ولا يمكن أن يجعل في جوفها، فكانت (في) ها هنا أولى من (على) لعدم اللبس، ومثل هذا في الأدوات كثير[٣].

هذا.. وقد آثرت ذكر تحليلات التنوخي لما ساقه من أمثلة لنقف على ما بين هذه الحروف سواء أكانت حروف عطف أو جر من معان لطيفة، وأسرار دقيقة، يجب مراعاتها عند التعبير.

وبالمقارنة بين ما ذكر التنوخي وما ذكره ابن الأثير في هذا الموضع نجد أن التنوخي متأثر بابن الأثير[٤] في كل ما أورده إلا أن التنوخي يحسب له كثرة تحليلاته، وعرضه المتميز فيما أورده وإحاطته الواعية بأنماط التعبير في القرآن الكريم ، عندما تجري على هذا النحو من الكلام.

وإذا كان ابن الأثير قد قال عن هذا الموضع: " وما رأيت أحداً من علماء هذه الصناعة تعرض إليه، ولا ذكره"[٥] مما يفهم منه أنه يدعي لنفسه السبق في هذا الموضع، فإن السهيلي[٦]، والزركشي[٧]، وابن القيم[٨] قد تعرضوا لهذا الموضوع في كتبهم.

الثاني عشر :التكرير

ذكر التنوخي أن التكرير ينقسم ثلاثة أقسام . تكرير اللفظ والمعنى ، وتكرير اللفظ دون المعنى ، وتكرير المعنى دون اللفظ.

---

(١) - ينظر : الأقصى القريب ص٨٩.
(٢) - سورة طه. الآية (٧١).
(٣) - ينظر : الأقصى القريب ص٩٠.
(٤) - ينظر : المثل السائر . جـ٢ ص٢٢٧ وما بعدها.
(٥) - ينظر : المثل السائر . جـ٢ ص٢٢٧ وما بعدها.
(٦) - ينظر : نتائج الفكر للسهيلي ص٢٩٥.
(٧) - ينظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ٢ ص٨٧.
(٨) - ينظر : بدائع الفوائد لابن القيم جـ٢ ص٢٠٢.

أما تكرير اللفظ والمعنى إذا لم يكن بين أفراد المكرر تفاوت أصلا فهو لمجرد التوكيد ، فمن ذلك تكرير الكلمة الواحدة كقولك جاء جاء زيد ، والتوكيد لرفع اللبس ... ومن ذلك تكرير أكثر من كلمة ، فمنه ما جاء في سورة الشعراء من قولة تعالى {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}(١) والتكرير فلأجل الوعظ ، فانه قد يتأثر بالمكرر من لم يتأثر بالمرة الواحدة

وأما مناسبة قولة (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً)- فذلك لظهور آيات الأنبياء عليهم السلام والتعجب من تخلف من لم يؤمن بآياتهم مع ظهورها . وأما مناسبة قوله تعالى (العزيز الرحيم) فانه تعالى نفى الإيمان عن الأكثر ، ودل بالمفهوم على إيمان الأقل ، فكانت العزة على من لم يؤمن والرحمة لمن امن وهما مرتبان كترتيب الفريقين.

ومثل ذلك ما في سورة الرحمن تعالى من قولة تعالى {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}(٢) فهو استفهام على التوضيح . ومثل ذلك أيضا ما في المرسلات من قولة تعالى {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ}(٣). للتهديد.

و التنوخي بهذا قد أشار إلى بعض أغراض هذا القسم ، وتناولها بالشرح والتحليل بما يدل على حسن تذوقه.

وأما ما تكرر لفظه دون معناه فكوله تعالى {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}(٤) يقول التنوخي : ها هنا اللفظ مكرر ، وانتصار المبغي عليه بإذن الله تعالى عدل ، وإنما سميت سيئة لكونها جزاء السيئة) (٥)

وقد عد البلاغيون هذه الآية من باب المشاكلة(٦) التحقيقية ، فقد سمى جزاء السيئة(سيئة) لتشاكل بها لفظ (السيئة) السابق، وفي هذا الأسلوب ما يؤدى إلي التنفير من فعلها حيث أن الجزاء على السيئة سيكون شديدا، لا تقل شدته عن الأثر السيئ الذي يترتب على اقتراف المعاصي والسيئات .

ثم إن استخدام لفظ (السيئة) في الجزاء عليها من قبيل "المجاز المرسل" لعلاقة السببية(٧)، وقد ساهمت المشاكلة مع المجاز المرسل في جمال الأسلوب وسمو بلاغته.

---

(١) - سورة الشعراء الآيتان ٦٧ ، ٦٨

(٢) - سورة الرحمن الآية ١٣

(٣) - سورة المرسلات الآية ١٥

(٤) - سورة الشورى أية ٤٠

(٥) - ينظر : الأقصى القريب ص ٩١

(٦) - المشاكلة : هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا . ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح عبد المتعال جـ ٤ ص ٢٢

(٧) - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح عبد المتعال جـ ٣ ص ٩٦

ثم يستطرد التنوخي في تحليل الآية فيقرر أن قوله تعالى(سيئة مثلها) لا يقوم ههنا غيرها مقامها ، لان مراده تعالى المماثلة في الجزاء من كل وجه، فلو قال :(سيئة) ولم يقل مثلها لم تفهم المماثلة التي هي عين العدل ، ولو قال : مثلها ، ولم يقل سيئة احتمل أن تكون المماثلة من غير جنس ، أو في بعض الأوصاف كقوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ }[1]. فهذه المماثلة من كونها جزاء ومشابهة في بعض الأشياء ، وكذلك أسندها إلى حكم العدلين لتطرق المنازعة في المثلية، بخلاف ما إذا قطع إنسان يمين إنسان، فإن قبالة ذلك قطع يمين القاطع ولا يفتقر إلى عدلين.

ومما مثل به لهذا القسم أيضا قول أبي منصور الثعالبي :

وإذا البلابلُ أفصحت بلغاتها ❊ فانفِ البلابلَ باحتساء بلابل

فالأول جمع بلبل وهو الطائر المعروف، والثاني جمع بلبال وهو الهم يختلج في الضمير، والثالث جمع بلبة الإبريق يشرب منه الخمر فأطلق اسمها على الخمرة ثم قال: وهذا من مليح التجنيس[2].
وكأني بالتنوخي يدخل هذا اللون من التجنيس. وهو التجنيس التام. في أقسام التكرير كما أدخل المشاكلة.

وأما تكرير المعنى دون اللفظ فكقول القائل: " أطعني ولا تعصني" الجملتان أمر ونهي معناهما واحد؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، والمعصية ضد الطاعة لكن النهي يستغرق، والأمر لا يستغرق وقد يستغرق، فإذا أراد بقوله : اطعني للاستغراق كان قوله بعد ذلك: ولا تعصني تبينا لهذا المعنى، ونفيا لطلب الطاعة الجزئية في الأمر المخصوص.

وبالتأمل فيما ذكره التنوخي نجد أنه قد تأثر بابن الأثير فهذه هي أقسام التكرير عند ابن الأثير ما عدا القسم الثاني عند التنوخي فإن ابن الأثير لم يذكره، وقد رأينا أن ما مثل به له يدخل في باب المشاكلة والتجنيس.
ثم إنه جار ابن الأثير فيما ذهب إليه في جعل التكرير بابا مستقلا عن الإطناب وليس لونا منه، وبذلك يكونا قد انحرفا عن مدرسة السكاكي التي تعد التكرير لونا من ألوان الإطناب[3].

---

(١) ـ سورة المائدة الآية ٩٥
(٢) ـ ينظر : الأقصى القريب ص ٩١
(٣) ـ ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح شرح عبد المتعال جـ ٢ ص ١٣٦

المبحث الثالث
مسائل علم البيان في الأقصى القريب

إن من يطالع كتاب الأقصى القريب للتنوخي يلاحظ أنه بعد أن انتهي من الكلام عن الفصاحة والبلاغة ، وما يتعلق بهما من حسن الكلمات المفردة وقبحها .. انتقل بعدها إلي الحديث عن المعاني التي يَبْحَثُ فيها علم البيان ، واستهلها بالاستعارة ثم انتقل إلي التشبيه وأطال في سرد أمثلته ، وبعد أن ذكر عدة ألوان تعد من صميم علم المعاني انتقل منها إلي التحدث عن الكناية والتعريض . وهو في ذلك لا يفرق – كما أشرت – بين مسائل علم المعاني ، ومسائل علم البيان والبديع ، إذ أطلق علي مباحث البلاغة جميعا اسم البيان متابعا في ذلك ابن الأثير بل وصل تأثره بابن الأثير متابعته في تناوله للمباحث البلاغية ، حيث قدم التنوخي الاستعارة علي التشبيه في الذكر كما فعل ابن الأثير في المثل السائر[1].

ولما كانت الاستعارة مبناها التشبيه ، وقد جري البلاغيون علي ذكر التشبيه أولا ثم الاستعارة ثانيا ، لذا فإني سأتكلم عن التشبيه أولا ثم الاستعارة وفقا لما سار عليه البلاغيون .

أولا : التشبيه [2]

تعريفه :
بدأ التنوخي كلامه عن التشبيه ببيان حقيقته فذكر أن التشبيه : هو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر ، ولا يستوعب جميع الصفات ، ولم يبق إلا كون كل واحد منهما غير الأخر ، ولو لم يكن كذلك لكانا شيئا واحدا عبر عنه بعبارتين ، ولا شبه حينئذ بين الشيء ونفسه .
ويلاحظ من كلام التنوخي أنه يقصد بالشيئين المشبه والمشبه به ، وبالصفة أو أكثر : وجه الشبه وبقوله : " ولا يستوعب جميع الصفات . . . الخ " أن المشبه لا يوافق المشبه به في جميع صفاته وإلا كان نفسه، ولا يشبه الشيء بنفسه بل يشبهه في بعض الوجوه .

تقسيمات التشبيه في رأي التنوخي

استطرد التنوخي في سرد أقسام التشبيه و أمثلته فذكر أن التشبيه يكون للأدنى بالأعلى غالبا بل لا بد من ذلك لأن الغرض رفع درجة الأدنى إلي درجة الأعلى لا بالعكس .

---

[1] - ينظر : المثل السائر حـ ٢ ص(٧٠ ، ١١٥)
[2] - ينظر : الأقصى القريب ص (٤١، ٤٢)

وقد يقلب بعضهم ذلك مبالغة ولا بد من قرينة تدل علي مراد القالب من رفع درجة الأدنى إلي درجة الأعلى كقول بعضهم :

ولم أر مثل هالة في معدٍ ∴ يشابه حسنها إلا الهلالا [١]

وقد نبه التنوخي بكلامه هذا إلي أن الأصل في التشبيه أن حق المشبه به أن يكون أعرف بجهة التشبيه من المشبه ، وأخص بها وأقوي حالا معها
كما أفاد كلامه أن هناك من يلجأ إلي قلب التشبيه وذلك بجعل الأصل فرعا ، والفرع أصلا مبالغه في إثبات وجه الشبه للمشبه .

وقد أشار ابن الأثير إلي أن هذا اللون من التشبيه يسمي (بالطرد و العكس)[٢] ، بعضهم يسميه (غلبة الفروع علي الأصول)[٣]. يقول ابن الأثير : ولا تجد شيئا من ذلك إلا والغرض به المبالغة ،فمما جاء من ذلك قول ذي الرمة ؛

ورمل كأرداف العذارى قطعته ∴ إذا ألبسته المظلمات الحنادسُ

ألا تري إلي ذي الرمة كيف جعل الأصل فرعا والفرع أصلا ، وذلك أن العادة والعرف في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء ، وهو مطرد في بابه ، فعكس ذو الرمة القصة في ذلك ، فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء ، وإنما فعل ذلك مبالغة؛ أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعني لأعجاز النساء ، وصار كأنه الأصل ، حتي شبهت به كثبان الأنقاء [٤].
وقد سمي هذا اللون عند المتأخرين بالتشبيه المقلوب[٥] .

كما اشترط التنوخي أن يكون في التشبيه أداته التي تدل عليه وهي الكاف أو كأن ، أو إرادتها أو إرادة معناها ، ومتى خلا عن ذلك فهو الاستعارة ، فإن المستعير قصد نقل اسم المستعار منه إلي المستعار له . أي هو هو ولزمه معني التشبيه من غير قصد .
والتنوخي بذلك يجعل مناط الفرق بين التشبيه والاستعارة هو وجود الأداة أو حذفها ،فالمحذوف الأداة عنده استعارة خلافا لجمهور البلاغيين.

أقسام التشبيه من حيث المعني والصورة :[٦]
للتشبيه بهذا الاعتبار عند التنوخي أربعة أقسام :تشبيه الصورة بالصورة،

---

[١] - ينظر : الأقصى القريب ص(٤٢)
[٢] - ينظر : المثل السائر حـ ٢ ص(١٥٦)
[٣] - ينظر : الخصائص لابن جني حـ ١ ض(٣٠٨)
[٤] - ينظر : المثل السائر حـ٢ ص(١٥٦،١٥٧)
[٥] - ينظر :شروح التلخيص حـ٣ ص(٤٠٧)
[٦] - ينظر : الأقصى القريب ص(٤٢)

والمعني بالمعني ، والصورة بالمعني ، والمعني بالصورة :

أما تشبيه الصورة بالصورة . فكقول امرئ القيس :

كأن سراته لدي البيت قائما ∴ مداك عروس أو صراية حنظل

وأما تشبيه المعني بالمعني فكقول عنترة

وخلا الذباب بها فليس ببارح ∴ غردا كفعل الشارب المترنم

وأما تشبيه الصورة بالمعني فكقول امريء القيس:

كأن الحصى من خلفها وأمامها ∴ إذا نجلته رجلها خذف أعسرا

وأما تشبيه المعني بالصورة فكقول امرئ القيس والتوأم :

كأن هزيزه بوراء غيثٍ ∴ عشار ُولة لاقت عشارا

هذه أقسام التشبيه من حيث المعني والصورة عند التنوخي ، ولم يفته الإشارة إلي من منع تشبيه الصورة بالمعني حيث قال : وتشبيه المعني بالصورة، والصورة بالمعني
لا بد فيه من تجوز وتأويل يرجع إلي تشبيه الصورة بالصورة ، والمعني بالمعني، ومن عد تشبيه المعني بالصورة ،ولم يعد تشبيه الصورة بالمعني لا معني لترجيحه أحد الأمرين علي الآجر، بل إما : أن يعدا معا أو لا يعدا معا[١].

وفي قول التنوخي نظر : حيث إنه اعترض علي من لم ير تشبيه الصورة بالمعني، ويُجَوّز تشبيه المعني بالصورة بأنه لا معني لقبول أحد الأمرين علي الأخر ، وعليه أما أن يجوزهما معا أولا يجوزهما معا .
وإني أري أنه لا معني لهذا الربط فإن تشبيه المعني بالصورة لم ينكره أحد لأنه نقل مما يدرك بالعقل إلي ما يدرك بالعقل والحس وهذا أدل علي إدراك وجه الشبه الذي جيء التشبيه من أجله . أما تشبيه الصورة بالمعني . فقد ذهب جمهور البلاغيين إلي إجازته علي طريق المبالغة . والتوسع .
ولعل التنوخي يقصد ما ذهب إليه الإمام الرازي من عدم جواز تشبيه المحسوس بالعقول مستدلا علي ذلك بأن العلوم العقلية إنما هي مستفادة من الحواس، ومنتهية إليها، فالمحسوس أصل المعقول، فتشبيهه به يكون جعلا للفرع أصلا، وللأصل فرعا، وهو غير جائز[٢].

---

[١] - ينظر : الأقصى القريب . ص(٤٢)
[٢] - ينظر :نهاية الإيجاز ص (٥٩)

وبالنظر فيما قاله ابن الأثير في هذا الموضع نري أن التنوخي مستمدا هذه التقسيمات بعينها من ابن الأثير [1] .

ثم قسم التنوخي كل واحد من هذه الأقسام إلي أقسام أربعه ، لأن كل قسم منها إما أن يكن مفرد ، وإما أن يكون مركبا .

أقسام التشبيه من حيث الإفراد والتركيب:

الأول : تشبيه مفرد بمفرد كقول المتلمس

عُقاراً عُتقت في الدَّن حتى ∴ كأن حبابها حدق الجراد

الثاني : تشبيه مركب بمركب ومعناها تشبيه المركب بالمركب لا كل جزء بجزء على سبيل الانفراد كقول الشاعر :

بكرن بكورا واستحرن بسُحْرة ∴ فهن ووادى الرس كاليد للفم

الثالث : تشبيه مفرد بمركب كقول القائل :

تُزجى أغنَّ كأن إبرة رَوْقِهِ ∴ قلم أصاب من الدواة مدادها

الرابع : تشبيه مركب بمفرد كقول أبي نواس :

رق الزجاج وراقت الخمر ∴ فتشابها فتشا كل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح ∴ وكأنما قدح و لا خمر

كما ذكر التنوخي لونا أخر من التشبيه وهو تشبيه حالة الشيء بحالة أخري ، وأفاد أن من أحسنه تشبيه وجود الحالة بعدمها ، أو العكس .

فمن الأول وهو تشبيه وجود حالة الشيء بعدمها قول أمريء القيسي :

كأني لم أركب جوادا للذة ∴ ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزقَّ الروي ولم أقل ∴ لخيلي كري كرة بعد إجفال

وأفاد أن بعض الناس يري أن امرؤ القيسي في هذين البيتين لم يناسب بين أنصافهما، ولو ناسب لقال .

كأني لم أركب جوادا ولم أقل ∴ لخيلي كري كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروي للذة ∴ ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

جامع بين ما يتعلق بركوب الخيل وبين ما يتعلق بالشراب والنساء .

---

[1] - المثل الثائر حـ٢ ص(١٢٨،١٢٧)

ثم يعلق علي ذلك بقوله : والجواب عن ذلك : أنه وإن كان بين ما أورده من الترتيب مناسبة ، فإن بين ترتيب امرئ القيس مناسبة وهي : أنه جمع بين لذتي ركوب الخيل وركوب النساء ، وبين سباء الخمر للكرم وكر الخيل للشجاعة ، وفيه زيادة في المعني فإن ركوب الخيل للذة لم تحصل من ذلك الترتيب ، ومن المعلوم أن سباء الزق لا بد فيه من اللذة ، فلا حاجة إلي قوله للذة .

ومن الثاني وهو تشبيه حالة العدم بحالة الوجود قول عنترة

وكأنَّ رُبًّا أو كحيلاً مُعقداً ∴ حشَّ الوقود به جوانب قمقم

يَنْباعُ مِنْ ذِ فرَي غَضُوبٍ جَرْةٍ ∴ زيافة مثل الفنيق المكرم

فقد شبه في البيتين حالة العدم بحالة الوجود فهو عكس ما تقدم ، وهو من التشبيه المقلوب ؛ فإن مراده تشبيه الذي ينباع من ذ فري الناقة بالرب والكحيل .

ومما تقدم يتضح لنا ما يلي :

أولا : قدم التنوخي الاستعارة علي التشبيه في الذكر علي خلاف ما عليه علماء البلاغة مما يدل علي انه لم تكن لديه فكرة واضحة عن علم البيان بالمعني الذي اصطلح عليه المتأخرون من البلاغيين حيث يقدمون التشبيه علي الاستعارة ، لأنها تقوم عليه ، ويظهر تأثر التنوخي بابن الأثير حيث ذكر الاستعارة قبل التشبيه .

ثانيا : تقسيمات التشبيه عند التنوخي جاءت باعتبارات ثلاثة :

أ – التشبيه المقلوب

ب – المعني ، والصورة

حـ – الإفراد والتركيب

وبالمقارنة بين هذه التقسيمات وتقسيمات ابن الأثير للتشبيه نري تأثر التنوخي بتقسيمات ابن الأثير ولا تجد كبير فرق بينهما.

ثالثا : خلت تقسيمات التنوخي للتشبيه من كثير مما عند المتأخرين ، كالخيالي والوهمي ، وكتعدد الطرفين أو تعدد أحدَهما ، كالملفوف ، والمفروق وتشبيه التسوية ، وتشبيه الجمع .

رابعا : نبه التنوخي إلي أن الأصل في التشبيه أن يشبه الأدنى بالأعلى في وجه الشبه غالبا لأن الغرض هو رفع درجة الأدنى إلي درجة الأعلى لا بالعكس ، وقد يقلب بعضهم ذلك مبالغة ولا بد من قرينة تدل علي مراد القلب من رفع درجة الأدنى إلي درجة الأعلى دون أن يكشف عن اسم هذا النوع من التشبيه والذي عرف كما

أشرت – عند ابن الأثير " بالطرد والعكس " ، ويسميه ابن جن بغلبة الفروع علي الأصول ، كما عرف عند المتأخرين بالتشبيه المقلوب .

خامسا : كان كلام التنوخي عن التشبيه في غاية الإيجاز فقد اقتصر علي ذكر شاهد واحد لكل نوع دون أن يفصح عن موطن الشاهد إلا نادرا .

ثانيا : الاستعارة[1]

إن من يطالع باب الاستعارة عند التنوخي يجد أنه قد تناول فيها عدة نقاط بصورة مجملة علي الوجه التالي :

أولا : تعريفها :
ذكر التنوخي أن الاستعارة نوع من أنوع المجاز ، ومعناه في الحقيقة التشبيه لكن حذفت أدواته ليكون أبلغ وأوقع في النفس ، وهو أن تسمي الشيء باسم غيره لشبهه به، وإرادتك وصفه بوصفه: كقولك للرجل أسد لشجاعته، وبحر لكرمه، وطود لثباته، وما أشبه ذلك وهو كثير: فمنه نقل اسم المنقول منه إلي المنقول إليه من غير ذكر اسم المنقول إليه كأنك جعلته إياه حقيقة للمبالغة كقولك : يا بدر ، ويا ظبي ،وهذا استعارة عنده وعند غيره.
ومنه ما يذكر معه اسم المنقول إليه كقولك : زيد أسد إخبارا ، وجاء زيد الأسد صفة من غير أن تذكر المعنى المستعار له... وقد يذكر المعنى المستعار لأجله كقولك زيد أسد بسالة، وجاء زيد البحر جودا،وهذا من التشبيه عند غيره.
ومما لا يذكر معه اسم المنقول إليه، ولكن ذكر معه ما يدل عليه كقولك: يا قمر الأرض، ويا ظبية الإنس، وهذا متوسط بين المعينين وان كان من القسم الأول:

ويؤخذ من هذا الكلام ما يلي:

١- أن الاستعارة هي في الأصل تشبيه حذفت أدواته ليكون ابلغ وأوقع في النفس

٢- أن تفسيره للاستعارة بأنها تسمية الشيء باسم غيرة لشبه به وإرادتك وصفه بوصفه، وتمثيله بنحو: زيد أسد ، وزيد أسد بسالة يجعلنا نقول إن التشبيه الذي حذفت فيه أداة التشبيه استعارة عند التنوخي مخالفا بذلك ما عليه جمهور البلاغيين ، ويظهر تأثره بمن يرى ذلك كأبي هلال العسكري والغانمي، وأبي الحسن الآمدي والخفاجي وغيرهم من علماء

---

[1] - ينظر : الأقصى القريب ص ٤٠

البيان[1].فحديث التنوخي عن الاستعارة شامل لما هو استعارة عند الجمهور كالأمثلة الأولى وماهو تشبيه كالأخيرة.
٣- المفهوم من كلامه أنه يدخل في الاستعارة التشبيه المحذوف الأداة إلى جانب ماتعارف عند غيره بنقل الاسم من معناه إلى غيره.

الاستعارة من حيث الحسن وعدمه :

أفاد التنوخي أن الاستعارة منها ما هو حسن، ومنها ما هو مستبشع، فأما ما هو في غاية الحسن فكقوله تعالى {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}[2] استعار المحو لليل لعدم إدراك المبصرات فيه، فهو كالمحو من الرسم وغيره، ولا يدرك فيه شيء بالبصر إلا بواسطة غيره كالكواكب والنهار، واستعار الإبصار للنهار لكشفه المبصرات وتحقق الناظر لها، وقد يقال هذه الاستعارة في غاية الحسن بالنسبة إلي كلام البشر لا إلي انه ككلام الله، فان كلام الله ليس ككلام البشر ومنه قول ابن الرومي:

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم ∴ في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدي ومصابحٌ ∴ تجلو الدُّجي والاخريات رجوم.

وأما ما هو حسن ولا يبلغ درجة الأول قول بعضهم :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ∴ دجي الليل حتى نظّم الجزع ثاقبه
وإنما نقص بالإحالة، لأن الأحساب وإن كانت قد وصفت بالإضاءة لظهورها، والأوجه وإن كانت قد وصفت بالإضاءة لحسنها، فإنهما لا يضيئان الليل بخلاف قول ابن الرمي- نجوم . فإن النجوم مضيئة في أنفسها.
وأما ما هو مستبشع فكقول المتنبي:

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة ∴ ففي الناس بوقات لها وطبول
وبشاعته عند المنصف ظاهرة فإنه أراد بذلك حط مرتبتهم، فاستعمل اللفظ السمج في قوله- بوقات وطبول- مع أنها تظهر فخافة السيادة، وتنوه بها، فلم يحصل له المعنى المراد مع سماجة اللفظ.

وبالنظر فيما ذكر نخلص ما يلي:

أولا: أن من حيث حسن الاستعارة وعدمه نرى أن التنوخي قسمها ثلاثة أقسام ما هو في غاية الحسن، وما هو حسن ، وما هو مستبشع.

---

[1] - ينظر : الطراز للعلوي جـ ١ ص ٢٠٦
[2] - سورة الإسراء الآية (١٢)

ثانيا: أن ما جاء في قول ابن الرمي والمتنبي تشبيه حذف منه الوجه والأداة وليس استعارة عند البلاغيين حيث ذكر طرفي التشبيه. المشبه والمشبه به

ثالثا: يدل ما ذكره التنوخي من شرح وتحليل وما أورده من موازنات وتفاضل بين كلام وآخر على حسن تذوقه وفهمه للأساليب

أقسام الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار:

لم يفصل التنوخي القول نحو أقسام الاستعارة بهذا الاعتبار وإنما اقتضب الحديث اقتضابا حيث إن كل ما ذكره هو أن الاستعارة تكون للأسماء والصفات والأفعال أما استعارة الاسم فكقولك: زيد أسد، والصفة كمبصرة في آية النهار، والفعل كاشتعل الراسي شيبا[1].

ومما سلف عن الاستعارة عند التنوخي نستطيع أن نخلص بما يلي.

١- أن تعريف الاستعارة عنده- فيما أرى مستمد من تعريف القاضي الجرجاني، وابن الأثير للاستعارة إذ هي عنده: نقل المعنى من لفظ إلي لفظ ، لمشاركة بينهما مع طي المنقول إليه.

٢- نلاحظ أن هذا التعريف لا يشتمل الاستعارة المكنية لذا لم يشملها تمثيله.

٣- أن التنوخي جعل من الاستعارة نحو: زيد أسد، وجاء زيد البحر جودا- كما أشرت – وهو من التشبيه البليغ عند البلاغيين.

٤-لا تقسيم للاستعارة عند التنوخي كالذي نراه عند غيره من البلاغيين، فلا حديث له عن الاستعارة المكنية، او التصريحية، ولا عن الأصلية والتبعية، ولا عن المرشحة، أو المجردة، أو المطلقة. إذ إن كلامه عنها كلام مجمل.

ثالثا: الكناية والتعريض

تعريفهما والفرق بينهما:

في بداية حديث التنوخي عن الكناية يقرنها بالتعريض، فيقول: ومن البيان الكناية والتعريض، وهما معنيان متقاربان جدا، وربما التبس علي كثير من الفضلاء

---

(1) - ينظر : الأقصى القريب ص ٤١

أمرهما فمثل احدهما بما يستحق أن يكون مثالا للآخر، وربما كان ذلك لكون اللفظ صالحا للكناية من وجه، والتعريض من وجه[1].

ثم يفرق بينهما ببيان حد كل منهما فيقول: والفرق بينهما أن الكناية وضع لفظ يراد به معنى يعرف من لفظ آخر هو أحق به، لكن يعدل عنه لقبحه في المادة أو لعظمه أو لستره، أو لما ناسب ذلك من الأغراض.
والتعريض أن يذكر شيء يفهم منه غير ما وضع له لمناسبة ما بين المعنيين.

فمن الكناية قولهم في الاسم العلم فلان، وفي اسم الجنس الهَنُ، والكناية بالوطء، والجماع وغيرهما من التلفظ بالفعل المستقبح ذكره[2].

ويبدو أن التنوخي نقل كلامه ملخصا من ابن الأثير حيث يقول ابن الأثير[3]: وقد تكلم علماء البيان فوجدتهم قد خلطوا الكناية بالتعريض، ولم يفرقوا بينهما، ولا حدوا كلا منهما بحد يفصله عن صاحبه، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر، وادخلوا احدهما في الآخر، فذكروا للكناية أمثلة من التعريض، وللتعريض أمثله من الكناية.
فممن فعل ذلك الغانمي[4]، وابن سنان الخفاجي[5]، والعسكري[6].
فبالمقارنة نجد أن كلام التنوخي – كما ذكرت – تلخيص لكلام ابن الأثير. وأن ما عناه التنوخي بما التبس على كثير من الفضلاء. هم ما أفصح عنهم ابن الأثير.

أقسام الكناية

أورد التنوخي قولا لبعض العلماء في تقسيم الكناية فقال: وقد نوع الكناية أهل البيان، وسموا كل نوع باسم.
فمنها التمثيل: وهو أن يضع على الشيء ما هو واقع على مثله، أو مشابهه كقولهم فلان نقي الثوب، أي: طاهر العرض، أقاموا النقاء مقام الطهارة، والثوب مقام العرض.. ومنه قوله تعالى {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ}[7]. على رأي كثير من

---

[1] - ينظر: الأقصى القريب ص ٧٢
[2] - ينظر: الأقصى القريب ص ٧٢
[3] - ينظر: المثل السائر جـ ٢ ص ٤٩
[4] - هو أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي
[5] - هو الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ت ٤٦٦هـ صاحب كتاب سر الفصاحة.
[6] - هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت ٢٩٥هـ صاحب كتاب الصناعتين.
[7] - سورة المدثر الآية (٤)

المفسرين أن المراد تطهير القلب، ولا يمتنع أن يكون المراد ههنا تطهير الثياب حقيقة.
والكناية التي لا تحتمل الحقيقة. مثل قول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ∴ ليس الكريم على القنا بمحرم

وقد سمى بعض الناس هذا مجاورة، وهو داخل فى حد التمثيل.
ومن ذلك ما جاء بالأمثال السائرة كقولهم: بلغ السيل الزبي، وجاوز الحزام الطبيين فيما اشتدَّ من الأمر ، ولعلهم لهذا سموه التمثيل.
و التنوخي يعني بقوله هذا سبب تسميتهم لمثل هذا أنوع من الكناية بالتمثيل.
وهذا من الاستعارة التمثيلية عند البلاغيين.

ثم يقول : ومنها الإرداف، وقدامه:[1] سماه بذلك: وهو أن يؤتي عوضا عن الكلام بما هو مرادف له كقول الشاعر :[2]بعيدة مهوي القرط . يريد طويلة العنق

كما ذكر أنه ينقسم إلي أقسام منها المبادهة : وهي مشتقة من بَدَه أي بدا من غير روية إما لتبيين أن الأمر كذلك ، أولا رادة المغالطة بالمسارعة إلي ذلك اللفظ .
مثال الأول قول تعالي : {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ}[3]. أي سارع إلي التكذيب من غير روية ولا فكر ، وذلك يكون للجهل أو للعناد .

ومثال الثاني وهو إرادة المغالطة بالمسارعة إلي ذلك اللفظ قول الشاعر :

إذا ما تميمي أتاك مفاخرا ∴ | فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

غالط عن الفخر وكني عن الخسة بأكل الضب . .
ومن الإرداف الكناية بمثل في قولهم – مثلك يفعل هذا ، ومثلك لا يفعل هذا – إثباتاً للأمر أو نفيه ، إدخالا للمقول له في ضمن المثل العام ، فيكون ذلك ألزم له .

ومن الإرداف – أيضا – الاستثناء من النفي وتفسيره بضد المنفي توكيدا لذلك النفي كقول القائل – مالك ظل إلا الشمس – فاستثناؤه الشمس التي هي ضد الظل توكيد لنفي الظل .وهذا المثال من تأكيد الذم بما يشبه المدح.

---

(١) - هو أبو الفرج قدامه بن جعفر ت سنة ٣٣٧ صاحب كتاب نقد الشعر ينظر ص١٥٧
(٢) - تمام البيت : إما لنوفل أبو ها وإما عبد شمس فهاشم
(٣) - سورة الزمر . الآية (٣٢)

ومما مثل به التنوخي للإرداف قوله تعالي : {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}[١]. استثني سلاما سلاما الذي هو ضد اللغو والتأثيم ، فكان ذلك مؤكدا لانتفاء اللغو والتأثيم .وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم.

ومنه قول الشاعر .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب

وفي البيت زيادة عن الكناية بديعة ، وهو أن فلول السيوف عيب فيها فأوهم بذلك عيبهم ، وإذا كان من قراع الكتائب كان أشرف المدح وأشده مضادة للعيب ، وفي هذا البيت معني لطيف ، وهو أنه إذا أوهم العيب أصغي العدو الذي لا يصغي للمرح فيسمع المدح كارها .
وإن كان هذا من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم [٢] .

ثم يستطرد التنوخي في سرد أمثلة للكناية فيذكر أن للإرداف أمثلة كثيرة وإن لم يكن فيها شيء من هذه المعاني المتقدمة . منه قوله تعالي : {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ}[٣].
عدلوا عن قولهم : نعم أو نعلم لئلا ينازعوا في موجب العلم وقالوا : (إنا بما أرسل به مؤمنون) ؛ لأن الإيمان والتصديق يكون عن أمر بدهي لهم ، ولا منازعة في البدهيات .
ومنه قو جميل بن معمر :

قالوا توقَّ خيام الحيِّ إن لهم ∴ عينا عليك إذا ما نمت لم تـنـم

قلت إن دمي أقصي مرادهم ∴ وما علت نظرة منها بسفك دمي

قولهم – إن لهم عينا عليك – كنى به عن قوله : يريدون قتلك ، وكذلك أجابهم بقوله . فقلت إن دمي أقصى مرادهمُ [٤].
ويتابع التنوخي ذكره لصور من الكناية فيقول : ومن الكناية ما ليس بتمثيل ولا إرداف ولا مجاورة كقوله تعالي : {أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}[٥] كنى به عن النساء وهو أنهن ينشأن في النعمة والغفلة عن مدارك العقول والنظر في دقيق المعني ، وذلك مما لا يليق بالملائكة ، فلذلك كنى عن النساء ؛ فإن لفظ النساء لا يدل علي ذلك .

---

[١] - سورة الواقعة . الآيتان (٣٦،٣٥)
[٢] - ينظر : الأقصى القريب ص٧٤،٧٣
[٣] - سورة الأعراف . الآية (٧٥)
[٤] - ينظر : الأقصى القريب (٧٤)
[٥] - سورة الزخرف . الآية (١٨)

ومنه قول كبشة بنت معد يكرب تحرض علي أخذ ثأر أخيها عبد الله

ولا تأخذوا منهم إفالا وأبكرا ∴ وأترك في بيت بصعدة مُظلم

الكناية – ببيت مظلم – عن قبر من لم يؤخذ بثأره ، فإن من أقوال العرب : أنه لا يزال قبر القتيل مظلما حتى يؤخذ بثأره فيضيء .

ثم انتقل إلي ما يستقبح من الكناية فذكر أن من الكناية ما يستقبح كقول المتنبي

إني علي شغفي بما في خمرها ∴ لأعف عما في سراويلاتها

كن بقوله – ما في سراويلاتها – عن الفرج وما والاه .
ويعلق علي هذه الكناية بقوله : ولعمري إن ذكر الفرح بأقبح أسمائه أحسن من قوله – ما في سراويلاتها – عن الفرج وما والاه ، ولعمري إن ذكر الفرج بأقبح أسمائه أحسن من قوله – ما في سراويلاتها – وهذا ليس بقسم من أقسام الكناية ، فإن هذا قبح في الشعر الذي يقع في الكناية وفي غيرها

وعن مثل هذا بعينه كنى الشريف الرضي بقوله :

أحِنُّ إلي ما تَضمنُ الخُمُرُ والحُلا ∴ وأصدِفُ عما في ضمان المآزر

فأتي بألطف ما يكون من اللفظ، فوصف بيته بالحسن كما وصف بيت المتنبي بالقبح[1].

ثم أنتقل التنوخي إلي التعريض فذكر أن من التعريض البديع قوله تعالي فيما حكاه عن قول الحواريين : {إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} . فكان غرضهم طلب المعجز ، فعرضوا بالاستفهام عن استطاعة الرب لإنزال المائدة، فلما قال لهم عيسى عليه السلام – اتقوا الله إن كنتم مؤمنين {قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} .
فعرضوا بذلك كله وقربوه من التصريح ولم يصرحوا؛ فتحقق عند عيسى عليه السلام مرادهم فقال: {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[2] فدعا باسمه العظيم الجامع وأردفه بقوله – ربنا – لقولهم – هل يستطيع ربك- وعمم الرب إذ لا يستطيع ذلك إلا الله، وسأل الله المائدة ، وان تكون عيدا، ففي ضمن هذا سؤال الله تصديقهم له، وهو من التعريض البديع، وسأل أن تكون آية، وذلك مما لا يصلح أن يكون إلا للأنبياء ثم قال- وارزقنا وأنت خير الرازقين- تعريضا بطلب

---

[1] - ينظر : الأقصى القريب ص٧٥

[2] - سورة المائدة الآيات ١١٢- ١١٤

ما سألوه من الأكل منها لأنه من الجائز إن كان انزل عليهم مائدة، وحظر عليهم الأكل منها... ومن التعريض قول امرئ القيس في البيت الذي جاوز حسنه الوصف وهو قوله:

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ∴ ورضت فذلت صعبة أي إذلال

عرض بقوله- وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا- عما يكون عند الجماع، ووصف نفسه بحسن الرياضة، ووصفها بالصعوبة والتعفف ثم قال- أي إذلال- ولم يقل : أي ذلة تعظيما لرياضته وتلطفه في التذليل فنصب- أي إذلال - على المدح، ولم ينصبه مصدرا عن ذلت[١].

وبهذا يكون التنوخي قد عرض لتعريف الكناية والتعريض، وفرق بينهما، وذكر أقسام الكناية، ومثل لأقسامها ثم ختم كلامه بما ساقه من أمثله للتعريض تكشف عن
حسنه وملوحته.

تعقيب:

بعد هذا العرض والدراسة للكناية عند التنوخي نستطيع أن نخلص بما يلي:

١- يظهر تأثر التنوخي واضحا في بداية كلامه عن الكناية بابن الأثير، إلا انه يحسب له ما أورده من فرق بين الكناية والتعريض، وأيضا ما أشار إليه من دوافع وأغراض تجعل المتكلم يعدل عن الحقيقة إلي الكناية.

٢- أنه على ما يبدو لم يحاول التنوخي الوقوف على ما ذكره الإمام عبد القاهر، والفخر الرازي والسكاكي عن الكناية. واكتفى بما قاله ابن الأثير وما تبديه قريحته.فلقد عرف الإمام عبد القاهر الجرجاني الكناية بقوله: والمراد بالكناية ههنا : أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلي معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ إليه، ويجعله دليلا عليه) [٢].وهذا قسم من الكناية عند التنوخي.

وجاء الإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ووضح كلام عبد القاهر، فحددها تحديدا دقيقا، بماله من قدرة منطقية على بيان الفروق بين المعاني فقال: اعلم أن اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلي غير معناها، فلا يخلو: إما أن يكون معناها مقصودا- أيضا- ليكون دالا على ذلك الغرض الأصلي وإما أن لا يكون كذلك، فالأول الكناية، والثاني المجاز [٣].

---

[١] - ينظر : الأقصى القريب ص ٧٥-٧٧

[٢] - ينظر : دلائل الإعجاز ص ٤٤

[٣] - ينظر : نهاية الإيجاز ص ١٠٢

وجاء من بعده السكاكي المتوفى سنه ٦٢٦ هـ، فعرفها تعريفا جلا ملامحها، وميز أنواعها بقوله: الكناية هي ترك التصريح بذكر الشيء إلي ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول : (فلان طويل النجادلينتقل منه على ما هو ملزومه وهو: طول القامة، وكما تقول: (فلانة نؤم الضحى) لينتقل منه إلى ما هو ملزومة؛ وهو كونها مخدومة، غير محتاجة الي السعي بنفسها في إصلاح المهمات[١].

٣- يبدو أن التنوخي كان مغرما بابن الأثير في كثير من أرائه حيث أننا نلحظ تأثر التنوخي بما أورده ابن الأثير من قول لبعض العلماء في تقسيم الكناية إلى أقسام ثلاثة تمثيل، وإرداف، ومجاورة. وأخذ- كما رأينا- يتناول هذه الأقسام بالتعريف والتمثيل لها، وبيان صورها. كما أشار إلى أن هناك من الكناية ما ليس بتمثيل ولا إرداف ولا مجاورة[٢].

ثم إنه بالرجوع إلى كلام ابن الأثير نجد انه لم يرض عن هذا التقسيم إذ يقول: وهذا التقسيم غير صحيح؛ لأن من شروط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصله عن عموم الأصل؛ كقولنا : الحيوان ينقسم أقساما منها : الإنسان وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الأسد : وحقيقته كذا وكذا ، ومنها غير ذلك ؛ وهاهنا لم يكن التقسيم كذلك ، فإن التمثيل على ما ذكر عبارة عن مجموع الكناية ؛ لأن الكناية إنما هي أن تراد الإشارة إلى معنى ؛ فيوضع لفظ لمعنى أخر ؛ ويكون ذلك اللفظ مثالا للمعنى الذي أريدت الإشارة إليه.[٣]

إلا أن التنوخي رضي عن هذا التقسيم ولم يعترض على شيء منه .
ويظهر أن ابن الأثير بنى رده لهذا التقسيم . على أن التمثيل – في رأيه – عبارة عن مجموع الكناية . ولكنه تراجع عقب ذلك مباشرة عن أن يكون التمثيل هو مجموع الكناية ، فذكر أن الإرداف ضرب من الكناية ؛ إلا أنه اختص بصفة تخصه ، وهى أن تكون الكناية دليلا على المكنى عنه ولازمة له بخلاف غيرها من الكنايات .
وبهذا نجد أن قول ابن الأثير مضطرب في تقسيمه للكناية ، بل وفي تحديده لها .

---

(١) - ينظر : مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٧٠
(٢) - ينظر : المثل السائر جـ ٣ ص ٥٨
(٣) - ينظر : المثل السائر جـ ٣ ص ٥٩

٤- أنه إذا كان التنوخي رضي عن هذه الأقسام ولم يعترض عليها فإنه لم يرض عن تقسيم ابن الأثير للكناية إلى حسنة وقبيحة.[1] وردَّ ذلك إلى القول الذي تقع فيه الكناية ، وليس إلى الكناية ذاتها . حيث قال ومن الكناية ما يستقبح كقول المتنبي

أنى على شغلى بما في خُمرْها ∴ لأعف عما في سراويلاتها

كن بقوله – ما في سراويلاتها – عن الفرج وما والاه ، ولعمرى إن ذكر الفرج بأقبح اسمائه أحسن من قوله – ما في سراويلاتها – وهذا ليس بقسم من أقسام الكناية فإن هذا قبح في الشعر الذي يقع في الكناية وفي غيرها .[2]

٥- جعل التنوخي من الكناية تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وهو الذى أشار إليه بقوله : ومنه الاستثناء من النفي وتفسيره بضد المنفى وتوكيداً لذلك المنفى ومنه قوله تعالى : {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}[3] استثنى سلاما سلاما الذي هو ضد اللغو والتأثيم فكان ذلك مؤكدا الانتفاء اللغو والتأثيم .[4]

وتأكيد المدح بما يشبه الذم لون من ألوان المحسنات البديعية عند البلاغيين.[5]

٦- يظهر – فيما يبدو – أن التنوخي اكتفى بما نقله ابن الأثير من قول بعض العلماء عن تقسيم الكناية إلى تمثيل وإرداف ومجاورة ولم يتابع أقوال العلماء في بحثهم للكناية.

فقد ذكر قدامه بن جعفر كلا من الإرداف ، والتمثيل في كتابيه " نقد الشعر " وجواهر الألفاظ ، أما الإرداف فقد عرفه بقوله : " أن تراد الدلالة على معنى ، فلا يؤتى باللفظ الخاص بالدلالة على ذلك المعنى بنفسه بل بلفظ هو ردفه ، وتابع له ضرورة ليكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع "

وأما التمثيل فقد عرفه بقوله : أن يراد الإشارة على معنى فتوضع ألفاظ تدل على معنى أخر ، وذلك المعنى ، وتلك الألفاظ مثال للمعنى الذي قصد بالإشارة إليه ، والعبارة عنه . ثم مثل له بما كتبه يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد حين تلكأ عن بيعته حيث قال : أما بعد فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابي هذا، فاعتمد على أيهما شئت والسلام " . ثم قال: فلهذا التمثيل من الموقع ما ليس له لو قصد للمعنى بلفظه الخاص "[6]

---

[1] - ينظر : المثل الثائر حـ ٣ ص ٥٨
[2] - ينظر : الأقصى القريب ص ٧٥
[3] - سورة الواقعة : الآيتان (٢٥ ، ٢٦)
[4] - ينظر : الأقصى القريب ص ٧٣ ، ٧٤
[5] - ينظر : شروح التلخيص حـ ١ ص ٣٨٦
[6] - ينظر : جواهر الألفاظ ص ٧ ، ونقد الشعر ص ١٧٨ ، ١٨١

وقد طالع الإمام عبد القاهر الجرجاني هذا الكلام فوجد أن الإرداف عند قدامه إنما هو الكناية بعينها ، فخلع عنها رداء الإرداف وعرفها بما أشرت قبل ذلك [١]
وجاء الرازي فلخص كلام عبد القاهر ، وحدد كلا من الكناية والمجاز بما لا يخرج عن تعريف عبد القاهر .[٢]
ثم عرفها السكاكي تعريفا كشف عن ملامحها ، وميز أنواعها . ثم فرق بين المجاز والكناية من وجهين :
أحدهما : أن الكناية لا تنافى إرادة الحقيقة بلفظها ، فلا يمتنع في قوله : " فلان طويل النجاد " أن نريد طول نجاده من غير ارتكاب تأول مع إرادة طول قامته ، والمجاز ينافى ذلك ، فلا يصح في نحو : " رعينا الغيث " أن تريد معنى الغيث من غير تأول
والثاني : أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم .
ثم قسمها إلى : كناية عن صفة ، وكناية عن موصوف ، وكناية عن نسبة الصفة إلى الموصوف ، ثم فرع عنها : التعريض ، والتلويح ، والرمز[٣] .
أى أن السكاكي قد حدد الكناية ، ووضح أقسمها قبل ابن الأثير والتنوخي، إلا أنه فيما يبدوا لم ترق هذه الأقسام للتنوخي ، وكان أولى به أن ينحو منهج السكاكي في هذا
أما التمثيل الذي ذكره قدامه فقد سماه عبد القاهر : " تمثيلا على حد الاستعارة ، وسماه البلاغيون من بعده : الاستعارة التمثيلية .[٤]

وعليه : فليس التمثيل من أقسام الكناية – كما يرى التنوخي وابن الأثير – وإنما الكناية هي الإرداف الذي تلقاه عبد القاهر من قدامة ، وأسلمه إلى المتأخرين من بعده ليجدوا فيه الكناية بعينها ، فيحددوها ، ويقسموها ، على نحو ما سلف .
وأما المجاورة التي ذكرها التنوخي وابن الأثير على أنها قسم من أقسام الكناية في زعم بعضهم ، فإنها – فيما أرى – ليست من باب الكناية ، وإنما هي علاقة من علاقات المجاز المرسل ، وهى علاقة المجاورة ؛ كإطلاق اسم الراوية على المزادة، والراوية اسم وضع في الأصل للبعير الذي يحمل المزادة ؛ وهى سقاء الماء ؛ فالبعير مجاور للمزادة ؛ والمتجاوران ينتقل من أحدهما إلى الأخر .[٥]

---

(١) - ينظر : دلائل الإعجاز ص ٤٤ وص ٤٩ من البحث
(٢) - ينظر : نهاية الإيجاز ص ١٠٢ وص ٤٩ من البحث
(٣) - ينظر : مفتاح العلوم ص ١٧٠
(٤) - ينظر : مواهب الفتاح ضمن شروح التخليص ٤/ ١٤٦
(٥) - ينظر : شروح التلخيص جـ ٤ ص ٣٤

فليست المجاورة قسما من أقسام الكناية ، وإنما هي صورة من صور المجاز المرسل ، الذي لم يجر له ابن الأثير والتنوخي في كتابيهما ذكراً .

٧- اهتدى التنوخي بابن الأثير الذي اهتدى بدوره بالعلامة ابن جني والعلامة الزمخشري فيما قالاه عن الكناية بلفظة (مثل) .[1]

---

[1] - ينظر : المثل السائر حـ ٣ ص ٦١ والخصائص لابن جنى حـ ٣ ص ٣٠ ، والكشاف للزمخشرى حـ ٣ ص ٤٦٢ ، ٤٦٣

المبحث الرابع

المحسنات البديعية في الأقصى القريب

تناول التنوخي في كتابه الأقصى القريب عدة ألوان من المحسنات البديعية - كالتناسب والتقسيم، والتجنيس وغيرها، إلا أنها جاءت مبعثرة في أنحاء الكتاب، لا يجمعها سلك، ولا يربطها نظام، فقد اختلطت بغيرها من موضوعات علمي المعاني والبيان، ويرجع هذا الخلط إلى أن التنوخي- كما أشرت من قبل- يطلق عليها وعلى غيرها من مسائل علم المعاني والبيان اسم البيان.

كما يرجع هذا الخلط - أيضا- فيما يبدو إلى تأثر التنوخي بابن الأثير في كتابه المثل السائر الذي جاءت فيه المسائل البلاغية من معان وبيان وبديع مختلطة ببعضها وسبب ذلك أن ابن الأثير قد أعرض عن متابعة مدرسة عبد القاهر الجرجاني في البلاغة، تلك المدرسة التي اتخذت خطاً علميا ثابتا متأنيا، حتى اتضحت لها علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع بينما اتجه ابن الأثير بالبلاغة وجهة أخرى أساسها التعريف بصناعة الكتابة؛ فقسم كتابه إلى مقالتين: المقالة الأولى عن الصناعة اللفظية، والمقالة الأخرى عن الصناعة المعنوية، فبعثر بهذا الصنيع مسائل المعاني، وصور البيان، ومحسنات البديع في أنحاء كتابه.
ومما يدل على تأثر التنوخي بابن الأثير في منهجه أننا نراه يتحدث على هديه في التخلص والاقتضاب وافتتاحات الكلام وخواتمه. وفي معظم ما تناوله من مسائل بلاغية.

ولهذا فإني حاولت جمع ما تبعثر في أنحاء الكتاب من محسنات البديع تحت ما عرف عند المتأخرين بالمحسنات المعنوية، والمحسنات اللفظية، تاركا منها ما لم يعده الخطيب القزويني من المحسنات كالتفريط والإفراط والاقتصاد، وتخليص الألفاظ بعضها من بعض، والمعاني بعضها من بعض واجتناب اختلاطها. وغير ذلك ما لم يعده الخطيب من البديع.

وقد رأيت من المناسب إتماما للفائدة أن أشير إلى ما يعنيه البلاغيون بالمحسنات المعنوية، والمحسنات اللفظية قبل الخوض في الكلام عنهما.

فالمحسنات المعنوية- كما يرى البلاغيون- هي التي يكون التحسين فيها راجعا إلى المعنى أو لا وبالذات، ويتبعه تحسين اللفظ ثانيا وبالعرض.
ويعرف هذا النوع من الأخر بأنه لو غير اللفظ بما يرادفه لبقي المحسن كما كان قبل التغيير، ففي قوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا}[1].

---

(١) ـ سورة النجم. الآيتان (٤٣- ٤٤).

طباق بين (أضحك وأبكى)، وبين (أمات وأحيى)، والطباق محسن معنوي، وعلامة كونه معنويا: أننا لو غيرنا اللفظ بمرادفه- في غير القرآن- فوضعنا في مكان: أضحك (سر) وفي مكان: أبكى (أحزن) مثلا- لم يتغير المحسن الذي خلعه الطباق على الكلام.

أما المحسنات اللفظية: فهي التي يكون التحسين فيها راجعا إلى اللفظ أولا وبالذات، ويتبعه تحسين المعنى ثانيا وبالعرض.
ويميز هذا النوع عن الأول بأنه لو غير أحد اللفظين بما يرادفه لزال ذلك المحسن، ففي قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ }[١]. جناس بين لفظي(ساعة وساعة) وهما كلمتان اختلفتا في المعنى، واتفقتا في نوع الحروف، وشكلها، وعددها، وترتيبها، ولذلك كان الجناس بينهما تاماً.

والجناس محسن لفظي، وعلامة كونه لفظيا أننا لو غيرنا اللفظ الأول مثلا- بمرادفه ووضعنا مكانه (يوم القيامة) لتغير المعنى الذي خلعه على الكلام.

وهذا التقسيم لتلك الألوان البديعية من لفظية- يرجع جمالها إلى اللفظ والصورة والشكل- ومعنوية- يردون حسنها إلى المضمون والمعنى- كما يقول استأذنا الدكتور/ **عبد الفتاح لاشين:** تقسيم لم يحالفه التوفيق، لأن ذلك فصل للجسم عن الروح، والروح عن الجسم؛ وذلك لأن جمال الألفاظ في تعلقها بالمعاني، وحسن المعاني في وجودها في تركيب، وتلك النظرة التكاملية الفنية كثيراً ما أكدها عبد القاهر الجرجاني، فالحسن الحقيقي للكلام لابد أن يكون من اللفظ والمعنى، ويشارك فيه كل من اللفظ والمضمون، وليس في واحد منهما فقط[٢].

أولا المحسنات المعنوية

١- التناسب

ذكر التنوخي أن التناسب يكون في الألفاظ وفي المعاني، وأكثر ما يحتاج إليه في الألفاظ، لأن المعاني التي تطلب لا يلزم فيها ترتيب ولا مناسبة،فإن المتكلم قد يفتقر إلى ذكر الأشياء المتناقضة والمتضادة والمتغايرة والمتنافرة، وحيث لا يفتقر إلى شيء من ذلك فهو التناسب، فكأنه مضطر إلى ما يأتي به إذا كان مرادا[٣].

ثم أخذ في بيان تناسب الألفاظ الذي هو معين على بيان المعاني فذكر أن منه المقابلة وعرفها: بأن يذكر الشيء ثم يقابله بمناسبه أو ضده.

---

[١] - سورة الروم. الآية (٥٥).
[٢] - ينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين.
[٣] - ينظر : الأقصى القريب ص ٩٢

وصرح بأن المقابلة بالضد هي التي يسميها جمهور أئمة البديع المطابقة.

فالتنوخي بهذا يرى أن المقابلة أحد أقسام تناسب الألفاظ، وأنها تنقسم إلى قسمين الأول؛ مقابلة الشيء بمناسبه، والثاني: مقابلة الشيء بضده وهي ما أطلق عليها أئمة البديع المطابقة.
ثم شرع في التمثيل لكل قسم شارحا ومحللا لما ساقه من أمثلة بأسلوب متميز يكشف عن حسن تذوقه للأساليب ومرامي الكلام.
فقال: أما المقابلة بالمناسب فكقوله تعالى: {اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[1].
قابل في هذه الآية بين- ربنا وربكم- وبين- لنا أعمالنا ولكم أعمالكم- وبين- بيننا وبينكم- وربنا وربكم معناه واحد وهو الله تعالى؛ فالمقابلة بين النسبتين، ولا مقابلة بين- لنا أعمالنا ولكم أعمالكم- من ثلاثة وجوه، لنا ولكم وجه، وأعمالنا وأعمالكم وجهان، الأعمال ونحن وأنتم، والأعمال غير الأعمال وإن شملها اسم واحد،وهاتان المقابلتان في الإثبات، وقوله- لا حجة بيننا وبينكم- البين ها هنا كالأعمال والضمير المضاف إليه كالضمير المضاف إليه في الأعمال، والمقابلة للعامة ، ثم بيَّن الإثباتين وهو- لنا ولكم- والمقابلة هنا بين النفيين؛ نفي الحجة عنا ونفي الحجة عنكم، لكن هذه المقابلة معنوية ليست لفظية؛ إذ لفظ الحجة واحد وابتداء هذا الكلام قوله تعالى- الله ربنا وربكم- وختمه- الله- يجمع بيننا وإليه المصير- وفي هذا إشارة إلى أن الأمر لله أولا وأخرا، وأتى باسم الله ثانياً مظهراً ولم يأت به مضمراً للتعظيم، ووحد البين في قوله تعالى: - يجمع بيننا- مناسبة لقوله: يجمع، وهذه من المناسبة المعنوية التي هي المقصود في البلاغة والبيان، وكمل بقوله- وإليه المصير- ليعلم أن الجمع المراد في المعاد وحين المجازاة على الأعمال وأتى بالضمير ولم يأت بالظاهر نفيا لتوهم المغايرة بين الجملتين[2].

ومن أمثلة المقابلة التي ساقها التنوخي وتعد من القسم الثاني الذي هو مقابلة الشيء وضده والتي أطلق عليها المطابقة. قوله تعالى: { إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ }[3]
يقول التنوخي: حصل أولا المماثلة في المتقابلين من كل وجه يقصد.
وثانيا: التناقض في المتقابلين وهما- ترجون ولا يرجون - وهو اللفظ الذي يلجأ في تفسير النقيضين إليه، وفي الآية أيضا المقابلة بين- الألم والرجاء- وهما متغايران لكن المؤلم مكروه، والمرجو محبوب، فالمقابلة بينهما للتضاد.

---

[1] - سورة الشورى. الآية (١٥).
[2] - ينظر: الأقصى القريب ص٩٢- ٩٣.
[3] - سورة النساء. الاية (١٠٤).

في مقابلة المقابلة الأولى بالمقابلة الثانية ترجيح لألم الكفار؛ فإن الألم ولا رجاء أشد من الألم مع الرجاء، ولا يقال قد شبه ألم الكفار بألم المؤمنين، وذلك يقتضي ترجيح ألم المؤمنين؛ لأنا نقول: ألم المؤمنين مشروط بأن، والمشروط بأن غير مقطوع بوقوعه، وألم الكفار مؤكداً بأنَّ للتحقيق، وفي ذلك ترجيح ظاهر لا يقابله ما ذكر من الشبه والمشبه به[١].

هذا. والمعتد به من هذين القسمين عند البلاغيين وعدوه من المحسنات البديعية هو مقابلة الشيء بضده، وهو ما يسمى عندهم بالمطابقة أو الطباق،

وما مثل به التنوخي من قوله تعالى: (وترجون من الله ما لا يرجون) هو ما يسمى بطباق السلب[٢].

ويلاحظ تأثر التنوخي بابن الأثير فيما ذهب إليه من جعل المقابلة أحد أقسام التناسب[٣]. إذ أن التناسب وقد يطلق عليه مراعاة النظير، والمقابلة، والطباق كل منها لون من ألوان المحسنات البديعية المعنوية عند البلاغيين[٤].

٢- التقسيم

استهل التنوخي هذا اللون بما درج عليه المناطقة من حصر الأقسام ووضع الحدود فقال: ومن البيان التقسيم، والتقسيم يكون تارة للواقع فيما الإنسان بصدده، ولا يلزم استيعاب، وتارة يكون التقسيم مقصوداً منه الحصر وهو على ضربين حصر الموجود وحصر الممكن في العقل وإن لم يكن موجودا، وحصر الموجود هو الواقع، وهو الذي يكثر استعماله في البيان. وأما حصر الممكن العقلي فيحتاجه أرباب العل وم العقلية الإلهي والطبيعي والرياضي والمنطق[٥].

ثم أخذ في سرد الأمثلة لهذه الأقسام. والذي يعنينا منها ما يتصل بالبلاغة.

فذكر أن من التقسيم البديع المستوعب الموجود في قوله تعالى {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}[٦] فالظالم لنفسه ممن أورث الكتاب هو المفرط في الأكثر من الكتاب. والمقتصد: هو الذي حافظ على البعض وفرَّط في البعض. والسابق بالخيرات: هو الذي حافظ على الكتاب كله أو أكثره، وتحديد ذلك عند الله ولم يفصله لنا.

---

(١) ينظر: الأقصى القريب ص٩٥-٩٦.
(٢) ينظر: الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ٤ ص٧.
(٣) ينظر: المثل السائر جـ٣ ص١٤٣.
(٤) ينظر: شروح التلخيص جـ٤ ص٢٨٦ وما بعدها.
(٥) ينظر: الأقصى القريب ص ٩٦
(٦) سورة فاطر الآية ٣٢

فالتقسيم مستوعب للموجود ولا يلزم من إمكان التقسيم إلى أكثر من هذه الأقسام أن لا تكون هذه الأقسام مستوعبة لدخولها تحت هذه الأقسام الثلاثة... وفي القرآن الكريم من التقسيم الذي لا يستوعب الموجود كثير ، ومنه قوله تعالى {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [١] مع أن في الدواب ما يمشي على أرجل كثيرة غير ذلك.

ومن التقسيم قول الشاعر:

فقال فريق القوم لا وفريقهم ∴ نعم وفريقٌ ليمُنُ الله ما ندري

وهذا مستوعب الموجدين من القائلين المذكورين. وفي الإمكان أن يكون في القوم من قال ذلك كله[٢].

وإذا قارنا بين ما ذكره التنوخي وابن الأثير نجد تأثر التنوخي بابن الأثير فيما ذكره. فقد تحدث التنوخي عن التقسيم دون إشارة إلى الجمع مع التفريق ، أو الجمع مع التقسيم، أو الجمع مع التفريق والتقسيم مما نجده عند الجرجاني[٣]. ثم الخطيب القزويني[٤]. وهو نفس منهج ابن الأثير إذ جاء حديثه عن التقسيم خاليا من كل هذا.

ويبدو أن ابن الأثير قد أخذ صحة التقسيم عن قدامة بن جعفر [٥]، فألم بمفهومه، وشروطه.

٢ - ترتيب التفسير

وضح التنوخي مقصده من هذا النوع : وهو أن يذكر المؤلف ناظما كان او ناثرا أشياء مرتبة ثم يفسرها، فالمحمود منه ما يكون التفسير مرتبا ترتيب المفسر فإن خالف بين المفسر في الترتيب أخذ عليه ما لم يكن ذلك لمعنى.

وبذلك يكون التنوخي قد بين حقيقة هذا اللون، والمحمود منه، وغير المحمود، ثم شرع في بيان صوره فذكر أن مما يخالف فيه الترتيب النظم لضرورة الوزن والقافية فيعذر فاعله.

وقد يخالف الترتيب لمعنى غير النظم فتكون المخالفة أولى من الترتيب ،

---

(١) - سورة النور الآية (٤٥)

(٢) - ينظر : الأقصى القريب ص ٩٧

(٣) - ينظر : دلائل الإعجاز ص ٦٤ ، ٦٥

(٤) - ينظر : الإيضاح جـ ٤ ص ٣٩ وما بعدها

(٥) - ينظر : نقد الشعر ص ١٣٩ ت : د / خفاجي

ومنه قوله تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١] المراد التخويف من هول ذلك اليوم ؛ فلما وصف الحال فيه قدم الأشرف فقال (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) ثم صرح بالتخويف فبدأبه في التفسير، لأنه الأهم والمقصود في هذا المقام، وأخر (الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ) وختم الآية بالرحمة إشعارا لشمولها.

ومما جاء مرتبا في القرآن العظيم قوله تعال {يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}[٢].

قيد هاتين الآيتين الخلود بدوام السماوات والأرض واستثنى ما شاء، وأخبر أهل السعادة أن عطاءهم غير مجذوذ عناية بهم وإحسانا إليهم، وقال عند خلود أهل الشقاء- إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ – ففي ذلك تنبيه على سعة رحمته، وأطماع في عفوه وذلك مما يزيد في عذاب المعذب، فإن اليأس مريح، وفي ذلك لهم راحة من وجه وتعب من وجه.

ومن ذلك ما جاء في الشعر كقول الشاعر وقد قتل أخوه ابنه فأتى به ليقتص منه فأطلقه:

أقول للنفس تأساءً وتعزية ∴ إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرد

كلاهما خَلَفٌ من فقد صاحبه ∴ هذا أخي حين ادعوه وذا ولدي

والمفسر في هذين البيتين ليس فيه ترتيب في اللفظ ؛ فإنه جمع بين أخيه وابنه في قوله (إحدى يديَّ) – وقوله - كلاهما خَلَفٌ – لكن الحي الحاضر أخوه والميت الغائب ابنه، فالحاضر الحي مقدم في المعنى، فلذلك رتبه فقال- هذا أخي ، وذا ولدي[٣].

ويلاحظ من هذا العرض ما يلي:

١- أن التنوخي تأثر بابن الأثير في تسمية هذا اللون بترتيب التفسير، ولم يسمه بصحة التفسير مثل قدامة بن جعفر[٤]. علما بأن ابن الأثير - فيما يبدو - قد

---

[١] - سورة آل عمران الآيتان (١٠٦، ١٠٧)
[٢] - سورة هود الآيات : ١٠٥- ١٠٨
[٣] - ينظر : الأقصى القريب ص ٩٨
[٤] - ينظر : المثل السائر جـ ٢ ص ١٧٢

أخذه عن قدامة بن جعفر غير أنه لم يذكر صحة التفسير، واستعاض عنه بترتيب التفسير، مع أن ابن الأثير يقول: إن فساد التفسير أقبح من فساد ترتيبه[١]، ومعنى هذا أن صحة التفسير أهم من صحة الترتيب.

وصحة التفسير عند قدامة هي: أن يضع الشاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الذي يصنعه فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها، ولا يزيد، أو ينقص كقول الفرزدق:

لقد جئت قوما، لو لجأت إليهم ∴ طريد دم، أو حاملا ثقل مغرم

فلما كان هذا البيت محتاجا إلى تفسير قال:

لألفيت فيهم مطعما، أو مطاعنا ∴ وراءك شزرا، بالوشيج المقوم

ففسر قوله: (حاملا ثقل مغرم) بأنه يلفي فيهم من يعطيه، وفسر قوله: (طريد دم)، بقوله: إنه يلقى فيهم من يطاعن دونه ويحميه[٢].

والظاهر أن الذي نبه ابن الأثير إلى فكرة " ترتيب التفسير" هو أنه أخذ على الفرزدق في البيتين السابقين أنه أصاب في التفسير وأخطأ في الترتيب، فانصرفت همته عن صحة التفسير إلى ترتيبه.

يقول ابن الأثير تعليقا على بيتي الفرزدق: (وذلك أنه أتى بتفسير ما هو أول في البيت الأول ثانيا في البيت الثاني، والأولى إن كان أتى بتفسير ذلك مرتبا، ففسر ما هو أول في البيت الأول بما هو مكان في البيت الثاني).

ثم نراه يتراجع عن ذلك الشرط في النظم، فيقول: واعلم أن الناظم، لا ينكر عليه مثل هذا، ما ينكر على الناثر، لأن الناظم يضطره الوزن والقافية إلى ترك الأولى[٣].

والحق أن ترتيب التفسير ليس شرطا لحسن الكلام، لأنه بشهادة ابن الأثير نفسه. قد جاء في القرآن الكريم، وغيره من الكلام الفصيح ما يخالف هذا الشرط. وهو ما قال به التنوخي إلا أنه سامح في مخالفة الترتيب شريطة أن يكون ذلك لفائدة، أو لضرورة الوزن والقافية فيعذر فاعله.ويبدو أن من الأمثلة التي ذكرها مايعرف باللف والنشر مرتبا وغير مرتب.

٢- مثل التنوخي لما يخالف الترتيب لمعنى غير النظم وصرح بأن المخالفة فيه أولى من الترتيب كما مثل لما جاء مرتبا وشرح المثالين بما يدل على حسن تذوقه ودرايته بأسرار الأساليب، وبين وجه الحسن في كل. إلا أنه لم يمثل لما خالف فيه الترتيب لضرورة الوزن والقافية. ولم يشر لصحة التفسير،

---

(١) - ينظر: المثل السائر جـ ٢ ص ١٧٧

(٢) - ينظر: نقد الشعر ص١٤٢ - ١٤٣.

(٣) - ينظر: المثل السائر. جـ٣ ص١٧٦.

وفساده كما فعل ابن الأثير وقدامة بن جعفر. ولعله اكتفى بترتيب التفسير عن صحة التفسير.

٤- التضمين[1]

يذكر التنوخي في بداية حديثه عن التضمين أنه مستعمل في الأدب على أنواع. ثم شرع في بيانها على النحو التالي:

١- منها تضمين القافية: وهو أن تكون الكلمة التي هي آخر البيت متعلقة بالبيت الذي بعده كقول بشر بن أبي حازم:

وكعبا فسائلهم والرَّبا ∴ ـب وسائل هوازن عنا إذا ما

لقيناهم كيف نعليهمُ ∴ بواتر يفرين بيضا وهاما

وهذا النوع عنده- كما ذكر- من عيوب القافية، وليس من البيان في شيء.

٢- ومنها أن يكون معنى البيت متعلقا بالبيت الثاني، ولا يتم معناه إلا به كقول زهير بن أبي سلمى:

لعمروك والخطوب مُغيِّرات ∴ وفي طول المعاشرة التقالي

لقد باليتُ مظعن أمّ أوفي ∴ ولكن أمُّ أوفى لا تبالـــــي

وهذا النوع عنده- أيضا كما ذكر- يختص بالشعر، وأثره في البيان ضعيف.

٣- ومنها أن الناظم أو الناثر يستعمل كلام غيره في كلامه مع التنبيه على أنه ليس له، إنما استشهد به، إلا أن يكون من الشهرة بحيث لا يلتبس بكلامه كالقرآن، والأشعار المشهورة عند أكثر الناس.

وأفاد أن هذا النوع مما يستحسن في البيان كقول الخطيب عبد الرحيم بن نباتة في ذكر يوم القيامة" فيومئذ تفد الخلائق على الله بُهمًا، فيحاسبهم على ما أحاط به علما. وينفذ في كل عامل بعلمه حكما، وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما. ومنه قول ابن المعتز:

ولا ذنب لي إنْ ساء ظنك بعد ما ∴ وفيتُ لكم ربي بذلك عـــالـــم

وها أنا ذا مستعتبٌ متنصلٌ ∴ كما قال عباسٌ وأنفي راغـــم

تحمّلْ عظيم الذنب ممن تحبه ∴ وإن كنت مظلوما فقل أنا ظالم

وهذا البيت معناه فيما استعمله المضمن.

٣- ومن أنواع التضمين ما معناه في الأصل غير المعنى الذي أريد به حالة التضمين كقول الشاعر:

---

[1] ينظر: الأقصى القريب ص١٠٢.

يا سائلي عن خالد عهدي به ∴ رطب العِجان وكفه كالجلمَد

كالأقحوان غداة غِبِّ سمائه ∴ جفت أعاليه وأسفلهُ نـــدى

البيت للنابغة في تشبيه الثغر، فأخذه وصرف معناه إلى هجاء خالد، وهذا البيت لم ينبه المضمن له على أنه مضمن لشهرته، وشهرة قائله.

ومن هذا العرض نستنتج ما يلي:

أولا: أفاد التنوخي أن التضمين مستعمل في علوم الأدب، ولعله يقصد بعلوم الأدب الشعر والنثر.

ثانيا: ذكر التنوخي أربعة أنواع للتضمين، حد كل نوع ومثل له بما يوضحه، استحسن نوعين، ولم يرض عن نوعين.

ثالثا: أن ما استحسنه التنوخي من أنواع التضمين وهما النوع الثالث والرابع هما ما استحسنه ابن الأثير. إذ نراه يقول: فأما الحسن الذي يكتسب به الكلام طلاوة فهو أن يُضَمَّن الشاعر شعره والناثر نثره كلاما آخر لغيره، قصدا للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود، ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاماً[1].

رابعا: أن ما عده التنوخي من عيوب القافية، وليس من البيان في شيء وهو النوع الأول وما خصه بالشعر وأثره في البيان ضعيف وهو النوع الثاني كان لابن الأثير فيه رأي آخر وهو أنه معيب عند قوم، وعنده غير معيب مستدلا على ذلك.

حيث يقول: وأما المعيب عند قوم: فهو تضمين الإسناد، وذلك يقع في بيتين من الشعر، أو فصلين من الكلام المنثور، على أن يكون الأول منها مسنداً إلى الثاني، فلا يقول الأول بنفسه، ولا يتم معناه إلا بالثاني، وها هو المعدود من عيوب الشعر.

وعندي غير معيب، لأنه إن كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثاني فليس ذلك يوجب عيبا، إذ لا فرق بين البيتين من الشعر في تعلق أحدهما بالآخر، وبين الفقرتين من الكلام المنثور في تعلق إحداهما بالأخرى، لأن الشعر هو كل لفظ موزون مُقفى دل على معنى، والكلام المسجوع هو كل لفظ مقفى دل على معنى، فالفرق بينهما يقع في الوزن لا غير.

والفقر المسجوعة التي يرتبط بعضها ببعض قد وردت في القرآن الكريم في مواضع منه، فمن ذلك قوله عز وجل في سورة الصافات: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى

---

[1] - ينظر: المثل السائر جـ٣.

بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ}[١]

فهذه الفقر الثلاث الأخيرة مرتبط بعضها ببعض، فلا تفهم كل واحدة منهمن إلا بالتي تليها، وهذا كالأبيات الشعرية في ارتباط بعضها ببعض، ولو كان عيبا لما ورد في كتاب الله عز وجل .... ومما ورد من ذلك شعرا قول بعضهم:

ومن البلوى التي ليـ ∴ ـس لها في الناس كنه

أن من يعرف شيئا ∴ يدَّعي أكـثـر مـنـه

يقول ابن الأثير: ألا ترى أن البيت الأول لم يقم بنفسه، ولا يتم معناه إلا بالبيت الثاني، وقد استعمله العرب كثيراً، وورد في شعر فحول شعرائهم، فمن ذلك قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه ∴ وأردف أعجازا وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ∴ بصبح وما الإصباح منك بأمثل[٢]

وإني أميل إلى ما ذهب إليه ابن الأثير من أن هذا النوع ليس بمعيب لما ساقه من شواهد تؤيد رأيه، ولكثرة وقوعه في كلام العرب شعراً ونثر، ووروده في القرآن الكريم. ثم إن هناك ما يسمى بالوحدة العضوية للقصيدة عند النقاد والتي تجعل من القصيدة بناء واحداً يكمل بعضه بعضا.

خامسا: جمع التنوخى فى كلامه عن التضمين بين مايتعلق بعيوب القافية وبين ماهو من التضميين المصطلح عليه فى البديع .وقد عد الخطيب التضمين فيما يلحق بالبديع، وجعله مما يتصل بالسرقات الشعرية[٣].

٥- الإرصاد أو التسهيم

بدأ التنوخي كلامه عن هذا المحسن ببيان حقيقته، ثم ذكر اسمه الذي عرف به عند البلاغيين. فقال: ومن البيان أن المتكلم يحصل في ذهنه ما يؤول إليه كلامه، فيضع أول كلامه دالا على آخره، وقد يكون مستدعيا لقوافي مخصوصة كما في الشعر ومنه قول بعضهم:

ومستخبر عن سر ليلى رددته ∴ بعمياء من ليلى بغير يقين

يقولون خبرنا فأنت أمينها ∴ وما أنا إن خبرتهم بأميـن

---

[١] - سورة الصافات. الايات (٥٠- ٥٣).

[٢] - ينظر: المثل السائر جـ٢ ص٢٠٢.

[٣] - ينظر: الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ٤ ص١٣٤.

بني البيتين على ما أوقعه في نفسه وهو قوله- وما أنا إن خبرتهم بأمين- يتبادر ذهن السامع للبيت الأول، وصدر البيت الثاني إلى عجزه، وفي البيت الأول- أيضا- انتهى المعنى عند قوله- رددته بعمياء من ليلى- وكمله بالقافية بقوله- بغير يقين- وفيه توكيد لما مضى.
ثم قال: ويسمى مثل هذا الإيغال وهذا من اصطلاح أرباب البديع، وقد اختار بعض أهل البيان أن يسمى ذلك الإرصاد.
ثم أخذ يسترسل في ذكر أمثلة، منها ما حكي أن جريراً أنشد بحضرة الفرزدق وفي عنفقة الفرزدق حينئذ شيب أبياتا جاء منها. لها برحى بجانب أسكتيها.
فوضع الفرزدق يده على عنفقته وقال: قبحك الله قبل أن يتلفظ جرير بعجز اليت وهو: كعنفقة الفرزدق حين شابا.
وقد جاء في الكتاب العزيز كثير من ذلك مما يتبادر الذهن فيه إلى خواتم الآي.

كما اعترض التنوخي على تسمية هذا النوع إرصاداً أو ايغالا دون أن يذكر سببا لاعتراضه، أو اسما رضي عنه فقال: ولا ينبغي أن نسميه إرصاداً، ولا ايغالا، وهو مثل قوله تعالي: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ }[1]. يتبادر الذهن إلى أن خبر إن لبيت العنكبوت لمن لم يسمعه،وليس من القوافي ولا فواصل الآي.
ومما يدل عليه فواصل الآي قوله تعالي: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}[2]. يتبادر الذهن إلى أن بعد قوله- عشية أوضحاها- وإن لم يكن مسموعا. وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}[3]. لكون موسى على قافية الفاصلة الأولى.

ومن هذا العرض نستطيع أن نقف على عدة حقائق أهمها ما يلي:

١- أن هذا اللون هناك من سماه بالإيغال وهناك من سماه بالإرصاد ولم يوافق التنوخي على أي اسم منهما حيث قال: ولا ينبغي أن نسميه إرصادا ولا ايغالا، دون أن يعلل لرفضه.

٢- أن التنوخي على الرغم من رفضه لهذه التسمية، وعدم تعليله للرفض فإنه لم يضع له اسما ترتاح له نفسه.

---

[1] - سورة العنكبوت. الآية (٤١).
[2] - سورة النازعات. الآية(٤٦).
[3] سورة الأعلى. الأيتان (١٨- ١٩).

٣- أن أول من نبه الى هذا المحسن هو عبد الله بن المقفع بقوله عندما سئل عن البلاغة، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر: الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته[1].ولم يسمه.

وجاء قدامة فسماه التوشيح[2]. وجاراه في التسمية كل من أبي هلال العسكري[3] وأبي بكر الباقلاني، وابن رشيق أطلق عليه اسم" التسهيم[4]" متابعا في هذه التسمية علي بن هارون المنجم[5]، فجاءت هذه التسمية على لسان ابن حيدر البغدادي[6]. وأسامة بن منقذ[7]. وجاء ابن الأثير فسماه الإرصاد[8]، ثم وجدنا هذا الاسم على لسان من جاء بعده غير أن الخطيب أطلق عليه اسم الإرصاد أو التسهيم[9].

وقد ذكر العلامة السبكي- نقلا عن الخطيبي- أن الإرصاد إنما سمي إرصاداً، لأن السامع يرصد ذهنه القافية بما عليها فيما قبلها، وسمي تسهيما من البرد المسهم المستوى الخطوط، وقيل يسمى تسهيماً، لأن المتكلم يصوب ما قبل عجز الكلام إلى عجزه، والتسهيم: تصويب السهم إلى الغرض[10].

ثانيا : المحسنات اللفظية

١-السجع

استهل التنوخي كلامه عن السجع بالرد على من عابه مطلقا معللا لذلك ، ومبينا متى يكون حسنا ، ومتى يكون قبيحا ، فذكر ، أن من عاب السجع مطلقا فمخطئ ؛ لأن السجع في كتاب الله كثير ، وفي كلام النبي ﷺ والفصحاء كقس وسحبان ، وإنما يعاب السجع إذا احتاج متكلفه إلى تنقيص المعنى أو زيادته وفعَل ذلك فالذي فاته من المعنى يقبح ، وترك السجع لا يقبح ، فيكون حينئذ السجع قبيحا لاستلزام القبح ، وبهذا يجاب عن قول النبي ﷺ : " أسجعا كسجع الكهان " فإنه لو عاب السجع مطلقا لما نطق به ، ولا يمكنه أن يعيبه مطلقا ، لمجيئه في كتاب الله تعالى كثيراً .

---

[1] - البيان والتبيين جـ١ ص١١٥.
[2] - ينظر: نقد الشعر ص١٦٧.
[3] - ينظر: الصناعتين ص ٤٢٥.
[4] - ينظر: العمدة لابن رشيق جـ٢ ص٣١.
[5] - ينظر: البلاغة تطور وتاريخ ص١٤٩.
[6] - ينظر: قانون البلاغة لابن حيدر البغدادي ص١٠٧.
[7] - ينظر: البديع في نقد الشعر ص١٢٧.
[8] - ينظر: المثل السائر جـ٣ ص٢٠٦.
[9] - ينظر: الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ٤ ص٢١.
[10] - ينظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص جـ٤ ص٣٠٥.

فالمعيب هو سجع مخصوص : وهو الذي مثله بسجع الكهان وهو الذي ينقص المعنى أو يزيده .[١]

ثم عرفه بأنه في الكلام المنثور أن تجعل مقاطعة وفواصله على روى واحد ، وقافية واحدة كضرب الشعر ملتزما ما فيه ما التزم فيها .

وأخيرا بين مراتب السجع من حيث حسنه وجودته فقال : وأجود السجع ما تساوت فصوله ، ثم الذي يزيد الفصل عما قبله زيادة لا تبلغ حد التنافر بين الفصلين في الطول والقصر ، فأما ما نفص فيه الفصل عما قبله فقد قيل : إنه قبيح ، وليس يقبح مطلقا ، بل إذا حصل التنافر فلا فرق بين أن يزيد الثاني عن الأول أو ينقص إذا لم يحصل التنافر .
ثم أفاد أن جميع ذلك في القرآن العزيز،
وأن أمثلته كلها في سورة الضحى[٢]. دون أن يذكر مثالا واحداً لأي صورة من صور السجع .
ومما سبق يلاحظ ما يلي :
أن التنوخي قد تأثر في كل ما ذكره بمن سبقه من علماء البيان .
فقد تأثر في رده على من عاب السجع مطلقا بما قاله ابن الأثير بخصوص هذه المسألة فقد ذكر أنه لا يرى وجها لمن يذمون السجع سوى عجزهم عن أن يأتوا به ، وإلا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم ، حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعا مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر وغيرهما ، كما أنه لم تخل من السجع سورة من سور القرآن فما جاء منه في القرآن الكريم قوله تعال :
{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا}[٣]
ومما جاء منه في الحديث النبوي الشريف قول النبي ﷺ : (أيها الناس: افشوا السلام واطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)

وهذا ما ذكره التنوخي مما يدل على تأثره بابن الأثير، على أن ابن الأثير نفسه قد تأثر بمن سبقه، فقد تأثر بما قاله قدامة بن جعفر، ثم بما قاله أبو هلال العسكري. وكان قدامة قد رأي ابن المقفع يقول: البلاغة: اسم جامع لمعان تجري على وجوه كثيرة، فمنها: ما يحسن في السكون ، ومنهما ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا)[٤]

---

(١) - ينظر : الأقصى القريب ص ١١٠
(٢) - ينظر : الأقصى القريب ص ١١١
(٣) - سورة الضحى . الآيات (ى١- ٤)
(٤) - ينظر : المثل السائر جـ ٤ ص ٢١١

فعد السجع بابا من أبواب البلاغة، ومن هنا عده قدامة في نعوت الوزن، ورأي أن المحدثين إنما يتبغونه، لأنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله ﷺ ، وقد كان يتوخي فيه مثل ذلك.[١]

غير أن أبا هلال العسكري قد زاد على قدامة بأنه لا حسن لكلام إلا إذا كان مزدوجا[٢] بدليل وروده في القران الكريم، فأما قول النبي ﷺ (اسجعا كسجع الكهان؟) فان الإنكار فيه منصب على سجع الكهان لا على كونه سجعا، ولو كرهه- عليه الصلاة والسلام لقال: اسجعا؟ ثم سكت)[٣]

ويقول العلامة السبكي: (السجع مأخوذ من سجع الحمام، وهو تغريده وهو محمود) ويورد قول الرماني: إن السجع عيب ويفسر قول الرماني بأنه يريد ما يقصد لفظه غير تابع للمعاني، ثم يذكر قول الخفاجي: السجع محمود، وإنما الاستمرار عليه في الدوام لا يحمد)[٤]

كما استقي التنوخي حديثه عن مراتب السجع من حيث حسنه وجودته مما ذكره ابن الأثير عن شروط حسن السجع حيث أفاد أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع.[٥]

ويؤخذ على التنوخي عدم تمثيله لأي صورة من صور السجع. وإن قد صرح بأن كل صوره موجودة في سورة الضحى.

٢- التجنيس

ذكر التنوخي أن التجنيس من أقسام البديع، وانه يتعلق بتحسين الألفاظ وعرفه بأنه هو أن يأتي المتكلم في كلامه بحرف أو حرفين، ثم يأتي بها ثانيا في أثناء ذلك الكلام من غير أن يكون بينهما بُعدٌ بحيث ينصرف الذهن عن الأول، ولعل ذلك أن يكونا مجتمعين في بيت من الشعر، ونحوه من الكلام، ولابد أن يكون المتجانسان مختلفي المعنى.[٦]

---

[١] - ينظر : البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٥
[٢] - ينظر : نقد الشعر ص ٨٤ ، وجواهر الألفاظ ص ٥
[٣] - ينظر : الصناعتين ص ٢٨٥
[٤] - ينظر : الصناعتين ص ٢٨٦
[٥] - ينظر : سر الفصاحة ص ١٦٦
[٦] - ينظر : الأقصى القريب ص ١١٢

ويلاحظ أن تعريف التنوخي للتجنيس فيه تطويل. وقد عرفه صاحب الصناعتين مهتديا بتعريف ابن المعتز له بقوله: التجنيس أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها على حسب ما ألف الأصمعي كتاب الأجناس[١]

ثم تكلم التنوخي عن صوره وأقسامه وأطال الحديث عنها بطريقة منطقية فلسفية فذكر أن كل واحد من المتجانسين: أما أن يكون كلمة أو أكثر من كلمة أو بعض كلمة، فيرجع هذا إلى ستة أقسام كلمة وكلمة وأكثر من كلمة. كلمة وبعض كلمة، أكثر من كلمة وأكثر من كلمة، أكثر من كلمة وبعض كلمة، بعض كلمة وبعض كلمة. وكل واحد من هذين القسمين أما أن يستويا بالنسبة إلي الحركات والسكنات أو لا يستويا، وكل واحد من هذين القسمين أما أن يستويا فيه اعني المتجانسين، أو لا يستويا، فينقسم كل قسم من الستة إلي أربعة أقسام فتنتهي الأقسام إلي أربعة وعشرين قسما[٢]

ثم شرع في التمثيل لكل قسم بأمثلة من عنده دون أن يذكر مثالا واحدا من مأثور الكلام ولعله يقصد بأمثلته التي أوردها من عنده استيفاء هذه الأقسام. ولم أجد عظيم فائدة في ذكرها سوى الإطالة. لذا أغفلت ذكرها.

ثم عاد إلي ذكر ما أورده أهل البيان والبديع من أقسام للتجنيس فذكر أنهم قسموا التجنيس إلي أقسام لا تستوعب. **الأول**: المطلق: وهو ما استوي لفظه تركيبا ووزنا كقوله تعالى: (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) . وقول أبي إسحاق إبراهيم بن عثمان المغربي:

لم يبق غيرك إنسان يلاذبه ∴ فلا برحت لعين الدهر إنسانا

<u>الثاني</u> : وهو أن تكون الألفاظ متساوية التركيب ، مختلفة الوزن، ومنه قول ابن العميد:

قد ذبت بين حُشاشة ودماء ∴ ما بين حر هوي وحر هواء

<u>الثالث:</u> وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير.

ثم أورد قولا لأحدهم وهو : إن زاد الاختلاف في التركيب على حرف واحد خرج من باب التجنيس .

ثم اعترض على هذا الرأي بقوله: وهذا التحجر لا معني له إذا المستحسن في الطبع

---

(١) - ينظر : الصناعتين ص ٢٥٢ ، والبديع لابن المعتز ص ١٠٩

(٢) - ينظر : الأقصى القريب ص ١١٢

الاشتراك لا الاختلاف ، وفي قوله تعالى: { فأدْلى دَلْوَهُ }[1] ما يراد على زاعم ذلك، فإنه أحسن من أدلى ذنوبه ، وألقى دلوه.[2]

وصاحب هذا القول الذي اعترض عليه التنوخي هو ابن الأثير حيث قال: القسم الثاني من المشبه بالتجنيس وهو أن تكون الألفاظ متساوية في الوزن مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير ، وإذ زاد علي ذلك خرج من باب التجنيس)

ثم أورد التنوخي عدة أمثلة لهذا القسم منها قوله تعالي : {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[3]. وقوله تعالى : {ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ}[4]. ومنه قول النبيﷺ : (الخيل معقود في نواصيها الخير إلي يوم القيامة)

<u>القسم الرابع</u> : وهو أن تكون الألفاظ مختلفة في التركيب بحرف واحد كقوله تعالي : {وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}[5]. وقول البحتري :

نسيم الروض في ريح شمال ∴ وصوب المزن في راح شمول

<u>الخامس</u> : وهو المعكوس وهو ضربان احدهما عكس الألفاظ ، والآخر عكس الحروف فالأول كقول بعضهم : عادات سادات العادات ، وكقول الآخر : شيم الأحرار أحرار الشيم. ومن هذا القسم قول عتاب بن ورقاء.

إن الليالي للأنــام منـاهــل ∴ تطوى وتنشر بينها الأعمار

فقصار هن مع الهموم طويلة ∴ وطوالهن مع السرور قصار

وقد ذكر التنوخي أن قدامة بن جعفر سمى هذا بالتبديل . ومثل له بقول بعضهم:اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك. ومنه قوله تعالى: { وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ }[6]
والثاني من هذا القسم : عكس الحروف كقول بعضهم :

أهديت شيا يقل لولا ∴ أحدوثه الفال والتبرك

كرسي تفاعلت فيه لما ∴ رأيت مقلوبة يسترك

---

[1] سورة يوسف الآية ١٩
[2] - ينظر الأقصى القريب ص ١١٤
[3] - سورة القيامة الآيتان ٢٢- ٢٣
[4] - سورة غافر الآية ٧٥
[5] - سورة القيامة الآيتان ٢٩ ، ٣٠
[6] - سورة آل عمران الآية ٩٥

السادس : وهو المجنب : وذلك أن يجمع المؤلف بين كلمتين أحدهما كالتبع للأخرى والجنيبة لها . كقول بعضهم :

أبا العباسي لا تحسب بأني ∴ لشيء من حلى الأشعار عاري

فلي طبع كسلسال معين ∴ زلال من ذري الأحجار جاري

السابع : وهو ما تساوي وزنه وتركيبه غير حروفه تتقدم وتتأخر . وذلك كقول ابي تمام:

بيض الصفائح لاسود الصفائح في ∴ متونهن جلاء الشك والريب

ومن المختلف الترتيب نوع حسن ينعكس كنفسه ولا يتغير معناه . كقوله تعالى {وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[1]

هذا ما أورده التنوخي من أقسام للتجنيس عند أهل البيان والبديع – كما أشار – ويلاحظ على ما ذكره الآتي.

١- أن القسم الأول: وهو ما استوي لفظه وتركيبه هو ما اسماه ابن الأثير بالتجنيس الحقيقي[2]. وسماه الخطيب القزويني بالجناس التام[3] . وهو ما اتفق فيه اللفظان في أنواع الحروف، وأعدادها ، وترتيبها ، مع اختلافهما في المعني .

٢- أن بقية الأقسام السبع للتجنيس التي ذكرها التنوخي عدها ابن الأثير من المشبه بالتجنيس، وليست تجنيسا حقيقيا ، وقد الم بها الخطيب القزويني ، ورتبها ترتيبا دقيقا ، حيث جعلها تحت اختلاف اللفظين في أعداد الحروف ، وسماه ناقصا، وفرع منه المطرف، والمذيل ، واختلافهما في أنواع الحروف ، وفرع منه المضارع، واللاحق، واختلافهما في ترتيب الحروف ، وسماه جناس القلب ، ثم الحق بالجناس: أن يجمع اللفظين الاشتقاق، أو ما أشبه الاشتقاق.[4]

٣- أن ما أورده التنوخي عن التجنيس قد استقاه من ابن الأثير – بل يعد في تصوري - تلخيصا لما ذكره في هذا الباب.

---

[1] - سورة يس الآية ٤٠

[2] - ينظر : المثل السائر جـ ص ٢٦٣

[3] - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ ٤ ص ٧٢

[4] - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ ٤ ص ٨٥

٤- لم يبين لنا التنوخي القيمة البلاغة، أو الفائدة الجمالية لهذا المحسن البديعي. فضلا عن أنه لم يكشف عن موطن المحسن فيما ساقه من شواهد وأمثله . بل ذكرها دون أن يعلق عليها بشيء

٥- أطلق التنوخي اسم (التجنيس) على هذا المحسن البديعي متابعا في هذا كثيرا من البلاغيين كعبد الله بن المعتز[١]، وأبي هلال العسكري[٢]، والرماني[٣]، وابن رشيق[٤]، والقاضي الجرجاني[٥]، وعبد القاهر الجرجاني[٦]، وابن الأثير[٧]، بينما نجد أن الخطيب القزويني اثر أن يطلق عليه اسم (الجناس)[٨]

٣-الترصيع

ذكر التنوخي أن الترصيع من البديع ، وأنه نوعان : أحدهما : أن تكون أجزاء الفصل الأول مساوية لأجزاء الفصل الثاني وزنا ورويا .
والنوع الثاني : أن تكون مساوية لأجزاء الفصل الثاني وزنا لا رويا:
ومثال الأول : قول الخطيب عبد الرحيم بن نباتة: الحمد لله عاقد أزمة الأمور بعزائم أمره، وحاصد أئمة الغرور بقواصم مكره. وموفق عبيده لمغانم ذكره، ومحقق مواعيده بلوازم شكره. ومنه نظما قول ذي الرمة :

كحلاء في برج ، نجلاء في دعج ∴ كأنها فضة قد شابها ذهب

ومثال النوع الثاني قول تأبط شرا:

حمال ألوية شهاد أندية ∴ قوال محكمة جواب آفاق

وقول الخنساء :

حامي الحقيقة محمود الخليفة مهـ ∴ دي الطريقة نفاع وضرار

---

[١] - ينظر : البديع لعبد الله بن المعتز ص ١٠٩
[٢] - ينظر : الصناعتين ص ٢٥٢
[٣] - ينظر : إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل ص ٩٩
[٤] - ينظر : العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٣٢١
[٥] - ينظر : الوساطة ص ٣٢٠
[٦] - ينظر : أسرار البلاغة ص ١١
[٧] - ينظر : المثل السائر جـ ١ ص ١١٦
[٨] - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ ٤ ص ٧٣

فائدته

ثم أفاد أن هذا اللون ليس من البيان وأن فائدته محصورة في أنه يستميل السامع بحسنه إلي فهم معناه.(١)

ويلاحظ من دراسة هذا اللون عند التنوخي ما يلي:

١- أن التنوخي قسم الترصيع نوعين ومثل للنوع الأول شعرا ونثرا، ومثل للنوع الثاني من الشعر. ولعله بهذا يري أن الترصيع ليس خاصا بالشعر ، خلافا لما عليه قدامة بن جعفر وتابعه فيه أبو هلال العسكري ، وعرفه بأنه : جعل حشو البيت مسجوعا(٢).
وخلافا أيضا لما عليه ابن الأثير الذي خص الترصيع بالنثر، وجعل مجيئه في الشعر نادرا جدا لما فيه من تعمق الصنعة ، وتعسف الكلفة(٣).

٢- أن التنوخي – فيما أري – قد أخذ مصطلح الترصيع ممن سبقه من علماء البيان كقدامة ابن جعفر(٤)، وأبي هلال العسكري(٥)، وابن الأثير(٦) الذي اخذ مصطلح الترصيع عن قدامة وسر تسميته عن أبي هلال العسكري ، وان كان قد نحا نحوا آخر بالترصيع، فجعله – كما أشرت – في النثر دون الشعر.

٣- ثم جاء الخطيب القزويني ، فعده نوعا من أنواع السجع ، كما عد ما سماه قدامة ، وأبو هلال ترصيعا ، نوعا آخر منه ، ولكنه خاص بالشعر(٧).

٤- لم يتكلم التنوخي عن القيمة الفنية والجمالية للترصيع بل صرح بأنه ليس من البيان إلا انه رجع وقال : إلا أنه يستميل السامع بحسنه إلي فهم معناه

٤- لزوم ما لا يلزم

عرفه التنوخي بأنه : هو أن يلتزم الناظم أو الناثر من الحروف حرفا أو أكثر قبل الروي ، ومع ما قبله من الحروف اللازمة كالتأسيس والردف إذا كان ألفا. وإذا لم

---

(١) - ينظر : الأقصى القريب ص ١١٦
(٢) - ينظر : الصناعتين ص ٤١٦
(٣) - ينظر : المثل السائر ص ٢٧٧
(٤) - ينظر نقد الشعر ص ٨٠
(٥) - ينظر : الصناعتين ص ٤١٦
(٦) - ينظر : المثل السائر ص ٢٧٧ وما بعدها
(٧) - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ ٤ ص ٩٣

يكن الردف ألفا تعاقب فيه الواو والياء، فلو التزم أحدهما لكان أيضا من لزوم ما لا يلزم.[١]

ثم أفاد أن الحرف الملتزم الأكمل هو أن تلتزم معه حركته . وأنه لم يشق أحد للشيخ أبي العلاء المعري غبارا في لزوم ما لا يلزم ، ولم يعمل احد فيه شيئا له إلي عمله نسبة تعتبر، ومع إكثاره من ذلك فكل عمله جيد وأجود.
ثم مثل من كلامه مما التزم فيه حرفا واحدا بقوله[٢]:

إذا داع دعاك لـرشـد أمـــر ∴ فلب ولا يفتك له إتباع
تغير مُلك حمير ثم كسـري ∴ ولم تقبل تغيرها الطباع
وجدت الناس في جبل وسهل ∴ كأنهم الذئاب أو السباع

ومما التزم فيه حرفين قوله :

تجنب حانة الصهباء ∴ واهجر أبدا حـانـــك
ولا ترسل علي الثلـ ∴ ـة في الغفلة سر حانك
ولا ترفع لغير الله ∴ في الحندس ألحـانـك
و يا دهر لحاك الله ∴ ما هنأت فرحـانـــك

ثم صرح بأن استعمال لزوم ما لا يلزم في النظم والنثر سواء ، إلا أنه لم يمثل له من النثر . كما يري أنه من ملح البديع .

هذا وقد سماه ابن المعتز من قبل : إعنات الشاعر نفسه[٣]. فدلت تسميته علي ما في صناعته من مشقة وعناء . وخصه بالشعر ، وهو أول من نبه إليه ، وسماه ابن جني باب التطوع بما لا يلزم ، ثم قال : وهو : أن يلتزم الشاعر مالا يجب عليه ، ليدل بذلك علي غزره وسعة ما عنده[٤]. وهو بذلك قد خصه بالشعر.

ثم جاء ابن الأثير فجعله شاملا للشعر والنثر علي حد سواء[٥]، وهو – كما رأينا – ما صرح به التنوخي . وتابعهما في ذلك الخطيب القزويني . حيث يقول في تعريفه له[٦] هو : أن يجيء قبل حذف الروي ، أو ما في معناه من الفاصلة ما ليس بلازم في مذهب السجع . كما في قوله تعالي : { فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * {وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ

---

(١) - ينظر : الأقصى القريب ص ١١٦
(٢) - ينظر : الأقصى القريب ص ١١٧
(٣) - ينظر : البديع لعبد الله بن المعتز . ص١٧٥
(٤) - ينظر : الخصائص لابن جني حـ٢ ص٢٣٤
(٥) - ينظر : المثل السائر حـ١ ص٢٨١
(٦) - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح حـ٤ ص١٠٣

فِي الغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقصِرُونَ}[١] . وقوله تعالي : {فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلَا تَقهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنهَرْ}[٢].

٦- الموازنة [٣]

ذكر التنوخي أن الموازنة هي أن تكون الكلمة التي هي خاتمة الفاصلة الأولي علي زنة الكلمة التي هي الفاصلة الثانية ، كانت علي رويها أو لم تكن .

ومثل لها بقوله تعالي : {وَالعَادِيَاتِ ضَبحًا * {فَالمُورِيَاتِ قَدحًا} ثم قال تعالي في السورة : { فَأَثَرنَ بِهِ نَقعًا * فَوَسَطنَ بِهِ جَمعًا} . ثم قال تعالي في السورة { وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعلَمُ إِذَا بُعثِرَ مَا فِي القُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ)[٤] ومنه قوله تعالي : ({وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجرًا}[٥].

ومنه قول الشاعر :

طاف يبغي نجوة	∴	من هلال فـهـلـك
ليت شعري ضلة	∴	أي شيء قـتـلـك
امريضٌ لم تعد	∴	ام عدو خـتـلـك
إن أمراً فادحا	∴	عن جوابي شغلك

وأخيرا علق علي ما أورده من شواهد بقوله: هذه الموازنة البنائية ويليها في الحسن الموازنة العروضية ، ومثلها الآيات الخمس المتوالية من أول المرسلات. والموازنة في كتاب الله وفي الكلام المنظوم والمنثور كثيرة جدا ، وحظها من البيان دون حظ الترصيع ، ونسبتها إلي الترصيع كنسبة البسيط إلي المركب[٦].

وإذا حاولنا المقارنة بين الموازنة عند كل من التنوخي وابن الأثير والخطيب نجد أن فهم التنوخي للموازنة يختلف مع فهم ابن الأثير ، في حين يتفق مع فهم الخطيب لها . فهي عند ابن الأثير[٧]: أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وأن يكون صدر البيت الشعري ، وعجزه متساوي الألفاظ وزنا.

---

(١) - سورة الأعراف الآيتان (٢٠٢،٢٠١)
(٢) - سورة الضحى . الآيتان (١٠،٩)
(٣) - ينظر : الأقصى القريب .ص١١٨
(٤) - سورة العاديات . الآيات (١ – ١٠)
(٥) - سورة الصافات . الآيتان (١،٢)
(٦) - ينظر الأقصى القريب ص ١١٨
(٧) - ينظر : المثل السائر جـ ١ ص ٢٩١

وعند الخطيب[١]: أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية ، كقوله تعالي: (ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة) ، فإن كان ما في احدي القرينتين من الألفاظ ، أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن ، خص باسم المماثلة كقوله تعالي {وَآتَيْنَاهُمَا الكِتَابَ المُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ} [٢]

فوزن الكلمة مطلوب في الفاصلتين فقط في الموازنة عند الخطيب وهو ما رأيناه عند التنوخي . بينما هو مطلوب في الألفاظ كلها عند ابن الأثير.

---

[١] - ينظر : الإيضاح لتلخيص المفتاح جـ ٤ ص ٩٩ ، ١٠٠

[٢] - سورة الصافات الآيتان ١١٧، ١١٨

المبحث الخامس

جهود التنوخي البلاغية والنقدية في الميزان

بعد معايشتي لفكر التنوخي ، من خلال كتابه الأقصى القريب في علم البيان ، بغرض الوقوف علي أهم جهوده البلاغية والنقدية أحاول في هذا المبحث كشف النقاب عما يحسب للتنوخي ،وما يؤخذ عليه

أولا : أهم ما يحسب له :
مما لا شك فيه أن للتنوخي جهدا ملموسا في علم البلاغة فلقد أضاف بكتابه هذا لبنة في صرح علم البلاغة تحسب له فيما يلي

١- ضمن التنوخي كتابه الكثير من البحوث البلاغية القيمة منها ما استقاه من فكر السابقين عليه ، ومنها ما هو من فكره وقريحته .

٢- تناول التنوخي الكثير من الأمثلة والشواهد التي أوردها بالدراسة والشرح والتحليل مما يدل علي سعة إطلاعه وحسن تذوقه .كما رأينا أثناء دراستنا لها .

٣- اقتبس التنوخي كلامه عن حسن الكلمات المفردة وقبحها من ابن سنان إلا أنه كثيرا ما كان يناقشه ، ويبدي رأيه ، وهذا مما يحسب له . كما أشفع حديثه عما به تستحسن الكلمة أو تستبشع بالكلام عن مخارج الحروف وأنواعها ، وصفات كل حرف . كما عرض – أيضا – عرضا دقيقا للحوشي الغريب ، والمبتذل الذي تداولته العامة ، وصيغة التصغير واستعمالاتها .

٤- إذا كان التنوخي قد جعل من حسن الكلام – كما ذكرت – أن يكون اللفظ والمعني متساويين ، فإنه لم يغفل مقامات الكلام ، ومقتضيات الأحوال . إذ يمكن أن نقول إن من حسن الكلام عنده أن يأتي علي الصورة التي يقتضيها المقام وهذا ما يسجل له .

لم يغفل التنوخي قضيه اللفظ و المعني وإنما عرض لها وأشار إلي آراء السابقين عليه، وبين أن هناك من يحفل باللفظ ويفضله علي المعني ، وهناك من يحفل بالمعني ويفضله علي اللفظ . وبين أنه مع من يهتم بالمعني ويحفل به ، وعلل لقناعته بذلك بما يجعل الدارس لكلامه يميل إليه .

٥- يدل علي سعة إطلاع التنوخي ، وحسن تذوقه ، ونقده للأساليب القائم علي الوعي بمرامي الكلام وغاياته ، ما أورده من آراء لبعض العلماء في هذه القضية ومناقشاته وتحليلاته لها ، وغوره في فهمها وإبداء رأيه .

٦- عد التنوخي صور الالتفات عند ابن الأثير من باب التوسعات في اللغه العربية ، وإذا كان التنوخي لم ترد في كتابه كلمة الالتفات أصلا ، فإن مما يحسب له ما ساقه من أمثلة وشواهد لهذه الصور .وعرض متميز ، وتحليل وشرح يدل علي حسن تذوقه كناقد ماهر بأسرار الكلام ومراميه .

٧- ألم التنوخي بباب التقديم والتأخير ، فتكلم عن تقدم أجزاء الجملة بعضها علي بعض و الغرض من التقديم ، وبسط القول بما يكشف عن إلمامه بعلوم العربية نحويه وبيانية . كما تكلم عن التقديم والتأخير لمرجع معنوي لا تعلق له بالنحو من تقدم أجزاء الجملة بعضها علي بعض . وذلك مثل تقدم الأشرف والأعظم ، والأقدم في الزمان ، والأكثر ، والراجح في شيء ما ، وساق العديد من الشواهد والأمثلة ، وأثبت أن مثل هذه المعاني المرجحة للتقديم كثيرة يعسر حصرها .

٨- في باب الإيجاز تعرض التنوخي لكثير من المسائل المتعلقة به ووفاها حقها مثل تعريفه ، وفضيلته . وما يؤثر فيه الإيجاز علي الأطناب ، كما عرض لصور الإيجاز المختلفة ومثل لكل منها . وإذا كان التنوخي قد تأثر بغيره في هذا الباب إلا أنه كان له أسلوبه المتميز .

٩- تكلم التنوخي عن مراعاة الحروف ومعانيها ، ومواقع اللبس فيها واشتباه بعضها ببعض وكشف عما بين حروف العطف ، وما بين حروف الجر من فروق دقيقة ، ومعان لطيفه . كما كشف عن دقة مسالك هذا الباب ، وما يعين علي مداركه ، وهذا من الأشياء التي تعد له . وتضاف إلي جهوده .

١٠- نبه التنوخي إلي أن الأصل في التشبيه أن يشبه الأدنى بالأعلى في وجه الشبه غالبا لأن الفرض هو رفع درجة الأدنى إلي درجة الأعلى لا بالعكس . كما أشار إلى انه قد يقلب بعضهم ذلك مبالغة ، وحينئذ لابد من قرينة تدل علي مراد القلب من رفع درجة الأدنى إلى الأعلى . وهذا ما عرف عند المتأخرين بالتشبيه المقلوب .

١١- قسم التنوخي الاستعارة من حيث الحسن وعدمه إلى ثلاثة أقسام : ما هو في غاية الحسن ، وما هو حسن ، وما هو مستبشع . واتبع كل قسم بما

يكشف النقاب عنه ، كما تناول ما ذكره من شواهد بالشرح والتحليل مما يدل علي حسن تذوقه

١٢- إذا كان فيما يبدو تأثر التنوخي واضحا في بداية كلامه عن الكناية بابن الأثير ، إلا انه يحسب له ما أورده من فرق بين الكناية والتعريض ، وما أشار إليه من دوافع وأغراض تجعل المتكلم يعدل عن الحقيقة إلي الكناية.

١٣- تناول التنوخي عدة ألوان بديعية منها ما يعرف بالمحسنات المعنوية كالتناسب والتقسيم ، وترتيب التفسير، والتضمين ، والإرصاد أو التسهيم . ومنها ما يعرف بالمحسنات اللفظية كالسجع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم ما لا يلزم ، والموازنة. كل هذا بأسلوب متميز ، وإن كان في كثير منها متأثرا بمن سبقه من البلاغيين – كما رأينا – عند دراسة هذه المحسنات. وإذا كان لم يفرق بين المحسنات المعنوية والمحسنات اللفظية.

ثانيا : أهم ما يؤخَذ عليه :

١- قرر التنوخي أن الفصاحة، والبلاغة ، والبيان ألفاظ تشترك في كثير من المعاني دون أن يذكر شيئا منها.

٢- وقف التنوخي عند المعني اللغوي للفصاحة والبلاغة ، ولم يشر إلى مفهومهما عند البلاغيين ، وكأنه لم يطلع علي كتابي الصناعتين لأبي هلال العسكري، والعمدة لابن رشيق حيث أورد كل منهما كثيرا من كلام العلماء في معني الفصاحة والبلاغة والبيان .

٣- لم يفصل التنوخي مباحث علم المعاني عن مباحث علم البيان ، كما لم يفصل المحسنات البديعة عنهما جميعا ، كما فعل عبد القاهر السكاكي بل جاءت هذه المباحث في كتابه متداخلة فيما بينها إذ نراه يتكلم عن مسائل من علم المعاني ثم ينتقل إلى مسائل من علم البيان ثم يعود إلى مسائل من علم المعاني ، وأخرى من البديع وهكذا .

٤- استمد التنوخي صور الالتفات من ابن الأثير والزمخشري دون أن يشير إلي أحدهما من قريب أو بعيد ، كما أنه لم يرد لكلمة الالتفات في كتابه ذكر .

٥- تعد نظرة التنوخي للإطناب محدودة حيث إنه لم يذكر له أقساما مثل ما فعل بن الأثير ، ولا أنواعا مثل ما فعل صاحب المفتاح ، بل أوقفه علي غرضين فقط : هما رفع ما يتوهم من لبث ، أو للتعظيم والتهويل ، في حين أن

للإطناب – كما نعلم – صورا كثيرة ، ولكل منها أغراض عدة تفهم من سياق الكلام .

٦- لم أقف علي شيء من باب الإنشاء وضروبه ، والمعاني المجازية التي تخرج لها الأساليب الإنشائية عند التنوخي إلا هذا اللون الذي سماه الأمر بضد المطلوب تهديدا للمأمور واستهانة به ، وذكر أن بعض الناس سماه خذلان المخاطب ، ولم يصرح لنا بمن سماه بهذا .

٧- قدم التنوخي الاستعارة علي التشبيه في الذكر علي خلاف ما عليه علماء البلاغة مما يدل علي قوة تأثره بابن الأثير ، أو لم تكن لديه فكرة واضحة عن علم البيان بالمعني الذي اصطلح عليه المتأخرون من البلاغيين ، حيث يقدمون التشبيه علي الاستعارة لأنها تقوم عليه .

٨- خلت تقسيمات التنوخي للتشبيه من كثير مما نجده عند المتأخرين ، كالحسي والعقلي ، والخيالي والوهمي ، وكتعدد الطرفين ، أو تعدد أحدهما ، كالملفوف، والمفروق ، وتشبيه التسوية والجمع .

٩- كان كلام التنوخي عن التشبيه في غاية الإيجاز فقد اقتصر علي ذكر شاهد واحد لكل نوع دون أن يفصح عن موطن الشاهد إلا نادرا .

١٠- لم نجد تقسيما للاستعارة عند التنوخي كالذي نراه عند غيره من البلاغيين ، فلم يتكلم عن الاستعارة المكنية ، أو التصريحية ، ولا عن الأصلية والتبعية ، ولا عن المرشحة ، أو المجردة ، أو المطلقة ، فكلامه عنها كلام مجمل ، كما أنه جعل من الاستعارة نحو : زيد أسد متأثرا بمن يري ذلك كالرماني وأبي هلال العسكري ، والآمدي – في حين أنه من التشبيه البليغ عند جمهور البلاغيين .

١١- اكتفي التنوخي بما نقله ابن الأثير من قول بعض العلماء عن تقسيم الكناية إلي تمثيل ، وإرداف ، ومجاورة ، ولم يتابع أقوال العلماء في بحثهم لها ، حيث إن هذا التقسيم مخالف لما عليه البلاغيون للكناية.
فالتمثيل سماه عبد القاهر تمثيلا علي حد الاستعارة ، وسماه البلاغيون من بعده الاستعارة التمثيلية .
والمجاورة إنما هي إحدى علاقات المجاز المرسل ، فهي صورة المجاز المرسل الذي لم يجر التنوخي له ذكر في كتابه .
أما الإرداف فهو الكناية بعينها عند عبد القاهر ، والذي تلقاه من قدامة ، وأسلمه إلي المتأخرين من بعده ليجدوا فيه الكناية بعينها .

١٢- لم يفرق التنوخي بين المحسنات المعنوية والمحسنات اللفظية ، بل كل ما أورده من محسنات بديعية تناولها على أنها من البيان . ولم يذكر منها إلا ألوانا قليلة .
كما أورد أمثلة لألوان من الفنون التى ذكرها وهى داخلة فى فنون أخرى غيرها.

الخاتمة

بعد محاولة جمع ما أورده التنوخي من مسائل بلاغية في كتابه الأقصى القريب وتصنيفها إلي معان ، وبيان ، وبديع وفقا لما عليه جمهور البلاغيين ،وعرضها ودراستها يمكن أن نسوق أهم النتائج التي وقفت عليها ، وهديت إليها فيما يلي .

- تناول التنوخي الكثير من المباحث البلاغية القيمة ، بأسلوب متميز ، يكشف عما امتلك من استشفاف بصير لروح البيان الأدبي ، كما هو واضح في تحليلاته وتعليلاته لما أورده من شواهد شعرية ونثرية .
- إن ما جاء في كتاب التنوخي علي وجازته من العديد من ألوان المعارف والعلوم منطقية ، ونحوية ، وصرفية ، وبلاغية تدل علي غزارة علمه ، وسعة إطلاعه وتعدد مواهبه ، وتنوع ثقافاته .
- رأينا أن التنوخي لم يفرق بين معان ، وبيان ، وبديع ، بل أطلق علي مباحث البلاغة جميعا اسم البيان ، متابعا في ذلك ابن الأثير الذي كان تأثيره به واضحا في كتابه ومن لف لفه كالزملكاني ، وابن سنان الخفاجي .
  لذا جاءت المباحث البلاغية بأنواعها الثلاث متداخلة دون تمييز بين ما هو من علم المعاني ، وما هو من علم البيان ، وما هو من البديع .
- إذا كان التنوخي قد حوي كتابه الكثير من المسائل البلاغية – كما رأينا – فإنه أغفل الكثير منها أيضا ؛ فلم يتكلم مثلا عن المجاز العقلي ، ولا أساليب القصر ، ولا الإنشاء ومعانيه المجازية ، ولا أساليب الفصل والوصل ، وكذلك العدد من المحسنات البديعية .
- جاء أسلوب التنوخي في تناوله للمسائل البلاغية التي تحدث عنها يحمل نهج السكاكي وروح عبد القاهر الجرجاني .
- أن ما قدمه التنوخي من مسائل بلاغية ونقدية قد أضاف لبنه في الصرح البلاغي ويمكن لكل دارس وباحث أن يستفيد منها .

وبعد: فإني آمل أن يخظي هذا البحث بالقبول، وأن يكون قد قدم شيئا مفيدا للدرس البلاغي والنقدي والله من وراء القصد، وهو حسبي ونعم الوكيل

وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم .

أهم المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم .
٢- أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجاني . ت د / عبد المنعم خفاجي .
٣- أعجاز القرآن للرماني . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . تحقيق وتعليق د/ محمد خلف الله أحمد ، د/ محمد زغلول سلام .
٤- الأقصى القريب في علم البيان للتنوخي . طبعة أولي . ط السعادة سنه ١٣٢٧هـ.
٥- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد ابن المنير علي هامش الكشاف للزمخشري .
٦- الإيضاح لتلخيص المفتاح . شرح الشيخ عبد المتعال الصعيدي .
٧- بدائع الفوائد لابن القيم الجوزي – تحقيق هاني الحاج – المكتبة التوفيقية بدون تاريخ .
٨- البديع في ضوء القرآن . للدكتور عبد الفتاح لاشين ز دار الفكر العربي .
٩- البديع لابن المعتز . تحقيق وشرح الدكتور عبد المنعم خفاجي . دار الجيل .
١٠- البرهان في علوم القرآن للزركشي . تحقيق محمد أبو الفضل ، مكتبة دار التراث .
١١- البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف . الطبعة الثامنة . دار المعارف.
١٢- البيان والتبيين . للجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام هارون . دار الجيل
١٣- جواهر الألفاظ . لقدامة بن جعفر
١٤- الخصائص لابن جني .تحقيق محمد على النجار .الطبعة الثالثة . الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٥- دلائل الإعجاز : للشيخ عبد القاهر الجرجاني ت د /عبد المنعم خفاجى .
١٦- ديوان عنترة بن شداد . ت الأستاذين ، عبد المنعم شلبي ، وإبراهيم الابيارى.
١٧- ديوان المتنبي. بشرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى . الطبعة الثانية
١٨- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى . دار الكتب العلمية . بيروت
١٩- شروح التلخيص . دار السرور. بيروت
٢٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة. تحقيق الأستاذ احمد شاكر. مطبعة الحلبي .

٢١- الصناعتين الكتابة والشعر لأبى هلال العسكري.ت الدكتور مفيد قميحة .دار الكتب العلمية . بيروت .

٢٢- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز . ليحي بن حمزة العلوي . دار الكتب العلمية . بيروت .

٢٣- عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي . ضمن شروح التلخيص .

٢٤- العمد' في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني . ت محمد محي الدين عبد الحميد . دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء .

٢٥- قانون البلاغة لابن حيدر البغدادي .

٢٦- الكشاف . للزمخشري . دار المعرفة . بيروت .

٢٧- لسن العرب .٠لابن منظور . طبعة دار الشعب .

٢٨- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير . تحقيق . د / أحمد الحوفي ، و د / بدوي طبانة . طبعة دار نهضة مصر .

٢٩- مفتاح العلوم . للسكاكي ز مطبعة مصطفي البابي الحلبي : بمصر .

٣٠- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي . ضمن شروح التلخيص

٣١- نتائج الفكر للإمام السهيلى . تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ على محمد معوض . دار الكتب العلمية . بيروت

٣٢- نصوص نقدية لأعلام النقاد العربي . للدكتور / محمد السعدي فرهود .

٣٣- نقد الشعر لقدامة بن جعفر . ت د / عبد المنعم خفاجى . ط أولي . مكتبة الكليات الأزهرية .

٣٤- نهاية الإيجاز . في دراية الإعجاز للرازي .

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٦/٦٨٤٤